

والعلماء هم الظالمون



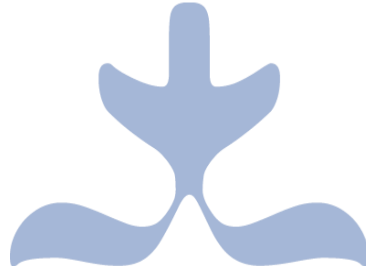




د. رشيد الجراح

الفهرس:

الجزء الأول: والعلماء هم الظالمون 4
تنبيه 4
والعلماء هم الظالمون 4
من هم العلماء؟ 4
حرب الخليج 22
المثال الثاني: العمل في دول الخليج 27
التجنس في بلاد الغرب 30
حكومة سمير لا قمحة ولا شعير 38
المثال: 40
الخاتمة 43
الجزء الثاني: والعلماء هم الظالمون 46
فتوى الشيخ القرضاوي 46
فتوى الحبيب الجفري 48
فتوى شيخ الأزهر 49
فتوى كبار علماء "السعودية" 50
الجزء الثالث: والعلماء هم الظالمون 57
الانضمام إلى الأحزاب 57
جواز السفر 61
رحلة العمرة والحج 65
رحلة الحج 66
الجهاد 68
انضمام الأردن إلى مجلس التعاون الخليجي 72
الجزء الرابع: والعلماء هم الظالمون 75
هل يجوز للمرأة أن تقود السيارة؟ 75
هل يجوز للمرأة أن تشارك في الانتخابات ؟ 76
فتوى عدم جواز الخروج على الحاكم لعلماء اليمن 77
فتوى الشيخ محمد سعيد البوطي بجواز السجود لبشار الأسد 78



والعلماء هم الظالمون

الجزء الأول



الجزء الأول: والعلماء هم الظالمون

تنبيه

هذا الكتاب لا يعبر سوى عن وجهة نظر كاتبها، وهي بأي حال من الأحوال غير ملزمة إلا له، لأنه يعتقد أن هذا هو الحق، ولو استطاع أحد أن يثبت خطأ الكاتب، فهذا مما سيثر البهجة لديه، وهو (أي الكاتب) لا شك مستعد ليتخلى فوراً عن هذه الآراء، لذا فإننا نهيب بالقارئ الكريم أن يبحث عن فجوات في هذا الطرح ليتم تصحيحه، كما نحثه على أن لا يؤمن بما جاء في هذا الكتاب ، لأنّ الإيمان بذلك يعني إقامة الحجة عليه، وبالتالي تحمله تبعات مثل هذه المواقف التي من الممكن أن تكلّفه ما (قد) لا يحتمله، لذا فإننا نرى أن لا يكلف القارئ نفسه عناء قراءتها في البدء، وإن هو فعل أن لا يقتنع بما جاء فيها، ومن ثم إلقائها إلى recycle bin على جهاز الحاسوب الذي قرأها منه.

أما بعد:

والعلماء هم الظالمون

نعم، العلماء هم الظالمون، ولا شك أنهم هم من أهم أسباب بلاء هذه الأمة كما كانوا سببه الأول والأخير عند الأمم الأخرى، وربما يستغرب البعض مثل هذا القول، فنرد بالقول بأن مقالتنا هذه تقحم نفسها في هذا الموضوع الذي لا شك سيكون له – إنْ صحّ- تداعياته الخطيرة على حياة الناس العاديين. ونحن ننوى أن نبيّن كيف يكون العلماء هم الظالمون، وكيف أنهم من أهم أسباب تأخر هذه الأمة وبقائها في ذيل القافلة. وسنحاول تفصيل الأمر باستعراض بعض الأمثلة من حياة الناس، نذكر منها:

1. حرب الخليج
2. العمل في دول الخليج العربي
3. جواز السفر الغربي
4. حكومة سمير لا قمحة ولا شعير

ولكن قبل الخوض في تفاصيل هذه القضايا لا بد من تجلية بعض المسوغات العقائدية لما سنزعم في مقالتنا هذه.

من هم العلماء؟

يحدد لنا النص القرآني -بما لا يدع مجالاً للتأويل- من هم العلماء، فقد وردت هذه المفردة في موقعين من كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ [الشعراء: 197]
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر: 28]

ونحن نعلم أنّ مفردة "العلماء" مشتقة من "العلم"، فالعلماء هم من تحصل لهم العلم، وقد أثبت القرآن الكريم أنّ العلم ربما يتحصل للكائنات الأخرى غير الإنسان، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]

فكل من وصله العلم بالشيء أصبح عالماً فيه، ولكن درجة العلم متفاوتة بين عالم وآخر. ونحن نظن أنّ العلم يتحصل بالنقل، وقد بدأت رحلة الإنسان مع العلم منذ "اليوم الأول" لخلقه، فالله سبحانه قد علمّ آدم الأسماء كلها، وبذلك انتقل ذلك العلم من المصدر الإلهي إلى آدم، فأصبح آدم عالماً متميزاً على بقية مخلوقات الله بتلك الهبة الربانية.

وهذا القرآن العظيم هو علم نُقل إلى محمد من المصدر الإلهي، قال تعالى:

- ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: 120]
- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: 113]

فالعلم إذاً قد جاء إلى النبي محمد من مصدر رباني، وهو ليس علم محمد من نفسه. وقد قام صلى الله عليه وسلم بدوره بنقل ذلك العلم إلى الناس، فتحصل لهم العلم به:

- ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: 151]
- ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: 164]
- ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت:49]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2]

ولا شك أنّ المصدر الصحيح للعلم هو المصدر الإلهي:

- ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: 239]

- ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: 5]

والعلم لا شك درجات:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١﴾ [المجادلة: 11]

تنتهي جميعها عند العلم الإلهي:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾ [يوسف: 76]

فالعلم كله عند الله:

- ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٢٦﴾ [الملك: 26]
- ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة: 216]
- ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢٣٢﴾ [البقرة: 232]
- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦﴾ [آل عمران: 66]
- ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧٤﴾ [النحل: 74]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝١٩﴾ [النور: 19]

لذا، فمهما بلغ الإنسان درجة متقدمة من العلم فلا يمكن أن يشكّل علمه ذاك إلاّ نزراً يسيراً من علم الله اللامتناهي:

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥﴾ [الإسراء: 85]

وهناك علم اختص الله به نفسه فلا يعلمه غيره:

- ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٦٥﴾ [النمل: 65]
- ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: 17]

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 36]
- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: 36]
- ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: 31]

فحتى الجن لا تستطيع الحصول على مثل ذلك العلم:

- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: 14]

وهناك أشياء نفى الله عن نفسه أن يعلّمها لأنبيائه:

- ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: 69]

وهناك أشياء أجّل الله العلم بها حتى حين:

- ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: 88]
- ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: 26]
- ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبأ: 4-5]
- ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التكاثر: 3-4]

والله سبحانه لا يساوي بين من يعلم ومن لا يعلم:

- ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: 4]
- ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: 9]

لأنّ من آتاه الله العلم هو الأقرب إلى الهداية وإلى الحق:

- ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل: 27]

ولكن ذلك العلم لا يؤتيه الله إلا لمن شاء له أن يكون عالماً به:

- ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: 255]

والله سبحانه يثبت في كتابه الكريم أن الغالبية لا تعلم، قال تعالى:

- ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يونس: 55]
- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: 40]
- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: 68]
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل: 38]
- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [النحل: 75]
- ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل: 101]
- ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: 24]
- ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: 61]
- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: 13]

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57]
- ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الروم: 6-7]
- ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [الروم: 30]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦﴾ [الروم: 56]
- ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٥﴾ [لقمان:25]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]
- ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [سبأ: 36]
- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ [الزمر: 29]
- ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾ [الزمر: 49]
- ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر:57]
- ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ [الدخان: 39]
- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ [الجاثية: 26]
- ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٧﴾ [الطور: 47]
- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون: 8]

وبالمقابل فإن الكثرة (التي لا تعلم) تتبع الظن، فالذي لا يعلم غالباً ما يسلك طريقاً غير طريق العلم، وهي طريق الظن وهوى النفس:

- ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجاثية:24]
- ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ [النجم: 28]
- ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام:116]

- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾ [يونس: 66]
- ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص: 50]
- ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 23]

فمن لديه العلم لابد أن يقدّم الدليل على علمه:

- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤﴾ [الأحقاف: 4]

ولا شك أن أنبياء الله قد آتاهم الله علماً، فكانت تتلخص مهمتهم بنقل ذلك العلم إلى الناس، فنبي الله إبراهيم يدعو أباه إلى الإيمان لأنه قد تحصّل له علماً لم يتحصّل لأبيه، قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم: 43]

افتراء من عند أنفسنا: ولكن ذلك لا يعني أن العلم مقتصر على الأنبياء، بل على العكس، فقد يتحصل للناس العاديين من العلم ما لم يتحصل للأنبياء أنفسهم، كلام خطير، أليس كذلك؟

الدليل

لو تدبرنا العبرة المستقاة من قصة موسى مع ذاك الرجل الصالح لوجدنا فيها توجيهاً إلهياً ربما غفلنا عنه لقرون، فلقد جهد كليم الله موسى في أن يتبع ذلك العبد الصالح ليتحصل له العلم:

- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 65-66]

ولكن جاء رد الرجل واضحاً:

- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾ [الكهف: 67-68]

نعم، لقد تحصّل لذاك العبد الصالح من العلم ما لم يتحصل لنبي الله وكليمه موسى عليه السلام، وعلى الرغم من دعوة علمائنا الأجلاء لنا بقراءة سورة الكهف (ولو مرة واحدة في الأسبوع) إلاّ أنّه - للأسف الشديد- لم يجد هذا التوجيه الرباني طريقه إلى التطبيق العملي بسبب ما أضفى العلماء على الأنبياء من القدسية، فهم قد جعلوا الأنبياء أعلم خلق الله، وجاءت طائفة أخرى لتضفي تلك القدسية على بعض الأولياء والصالحين، كالصحابة والتابعين وأهل البيت عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، وتتابع هذا

المسلسل حتى ذهبت بعض الطوائف والفرق لتضفي مثل تلك القدسية على شيوخ الطريقة وهكذا، ولو زعم رشيد الجراح في يوم ما أنه رأى في منامه (وليس في الحقيقة) أنه ربما يكون أكثر علماً من ابن عمر أو أبي حنيفة أو حتى أحد تابعي التابعين لأقاموا الدنيا فوق رأسه ولما أقعدوها (وقد فعلوا)، ولكننا نقول لعلمائنا الأجلاء: ما الفائدة التي ربما تستنبطوها من قصة ذهاب موسى (نبي الله وكليمه وهو واحد من أولي العزم من الرسل) في رحلة طويلة ليطلب العلم من عبد من عباد الله لا يذكر القرآن الكريم اسمه بصريح اللفظ؟ ثم، ألم تستفيدوا من أدب نبي الله مع ذلك الرجل؟ فهل كابر موسى وصرخ بالرجل بأنه نبي الله وكليمه؟ ثم لننظر إلى رد ذلك الرجل، ألم يؤكد لنبي الله أنه لا يستطيع مجاراته في العلم، وأنه لن يصبر على علم لم يحط به خبرا؟

*** *** ***

لقد نخر علماؤنا الأجلاء في أذهاننا أن عصر العلم قد ولى وانتهى، فلا يمكن لنا أن نصل إلى ما وصل إليه من سبقنا في الزمن، وهنا سأطرح سؤالاً بسيطاً: إذا كان الأمر كذلك: فما فائدة وجودنا أصلاً؟ ألم تنتهي رحلة العلم مع من رحل؟ ماذا نعمل نحن على وجه هذه البسيطة؟ نأكل، نتزاوج، ننام، نردد ما قالوا، وكفى.

رأينا: كلا وألف ألف كلا، نحن نعلم وربما نعلم أكثر مما علموا هم، وما نحن بحاجة له هو أن نعطى الفرصة (وربما الثقة) لأنفسنا بأننا قد نعلم. فالله سبحانه أمرنا أن نبقى على الدوام مطالبين زيادة ذلك العلم:

- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه:114]

دعاء: رب زدني علما، إنك أنت العليم الحكيم

لأنه لا يمكن أن نتخيل ما يمكن أن يتحصل لنا من علم إن نحن اجتهدنا في طلبه، ولنمعن التفكير بما كان يستطيع القيام به من تحصل له شيء من ذلك العلم:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾ [النمل: 40]

وكل ما يجب علينا أن نلتزم به في رحلة العلم التي ننشدها هو أن لا نتجرأ بأن نقول (كما يفعل بعض الناس) على الله بغير علم:

- ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يونس: 68]
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ [الحج: 3]
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [الحج: 8]

- ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾ [الحج:71]
- ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ [النور: 15]
- ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾ [الروم: 29]
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾ [لقمان: 6]
- ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ [لقمان: 20]
- ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠﴾ [الزخرف: 20]

فقد نسب بعضهم العلم لأنفسهم:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص: 78]
- ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾ [الزمر: 49]

فاستحقوا بذلك الختم على قلوبهم:

- ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٩﴾ [الروم: 59]

والله سبحانه كان قد نهى نبيه نوح أن يسأله عن ما "ليس لنوح علم به" لأن ذلك فعل لا يقوم به إلا من أراد أن يكون من الجاهلين، قال تعالى:

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 46]

وقد نهانا الله سبحانه عن إتباع سبيل وأهواء الذين لا يعلمون:

- ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [يونس: 89]
- ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية: 18]

فنحن إذاً مطالبين بإتباع سبيل الذين يعلمون، والابتعاد عن طريق الذين لا يعلمون، أليس كذلك؟

***   ***   ***

وهنا نصل إلى ذروة ما نقصد في بحثنا هذا، وتتمثل المعضلة التي نود طرحها في تطابق عجيب يمكن تلخيصه على النحو التالي: لقد وجّهنا الله إلى إتباع سبيل الذين يعلمون ونهانا أن نتبع سبيل الذين لا يعلمون، وفي الوقت ذاته أثبت ربنا في كتابه الكريم أنّ العلم الإلهي هو سبب الاختلاف بين الناس:

- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران: 119]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾ [الشورى: 14]
- ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾ [الجاثية: 17]

وتتأكد الفكرة نفسها حتى عند الأمة الواحدة، فلقد كان بنو إسرائيل على وفاق حتى جاءهم العلم الإلهي:

- ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾ [يونس: 93]

إذاً نحن نفهم من هذه الآيات الكريمة أن العلم هو سبب الاختلاف، لذا نحن نثير تساؤلاً (نظن أنه مهماً، ألا وهو: كيف يكون العلم سبباً للاختلاف؟ أليس العلم طريقاً للمعرفة ومن ثم الهداية كما أسلفنا سابقاً؟ ألا يجدر بالعلم أن يؤدي بنا إلى التوافق بدلاً من الاختلاف؟

رأينا: كلا، لقد بيّن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن سبب الاختلاف هو العلم، فكيف يكون ذلك؟

النتيجة: العلم هو سبب الهداية وهو – في الوقت ذاته- سبب الاختلاف، وبالتالي فالعلماء إما أن يكونوا سبباً في الهداية أو سبباً في الاختلاف. وهذا بالضبط ما سنحاول تجليته من الأمثلة التي سنقدمها.

إنّ أول ما يمكن أن نسلّط عليه الضوء في هذا المقام هو ما تكرر في الآيات الكثيرة في كتاب الله حول التأكيد الرباني أنّ الإنسان قد يجحد بآيات ربه على الرغم من علمه بها، كما حدث لآدم يوم أن عصى ربه، فالله قد أودع في آدم علماً، ولكن ذلك العلم لم يثن آدم عن الوقوع في المعصية، وتكرر مثل هذا الأمر مع نبي الله موسى عليه السلام، فقد آتاه الله حكماً وعلماً يوم أن بلغ أشده، ولكن ذلك لم يثنه عن قتل الرجل الذي هو من عدوه، ولنتدبر النص بأكمله كما يرد في سورة القصص:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 14-16]

وهو بالضبط ما كان من أمر نبي الله ورسوله يوسف، فقد همّ بالمرأة كما همّت هي به من قبل (لولا أن رأى برهان ربه)، وقد حصل ذلك بعد أن كان الله قد آتاه حكماً وعلماً:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٢٢ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: 22-24]

إنّ فحوى الكلام هو أنّ حصول العلم لا يعني عدم الوقوع في المعصية، وهذا المعنى تكرر في كتاب الله في أكثر من موضع، تتجلى أوضح صوره بالشرك:

- ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: 22]

وفي إيقاع الأذى برسل الله وأنبيائه:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: 5]

وتبدأ الصورة تقل وضوحاً في تحريف كلام الله:

- ﴿۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾ [البقرة: 75]

وفي أكل أموال الناس:

- ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٨٨﴾ [البقرة: 188]

وفي الكذب:

- ﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾ [آل عمران: 75]
- ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٤﴾ [المجادلة: 14]

وفي خيانة الأمانة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: 27]

وتبدأ المشكلة الحقيقية في صورتين رئيسيتين وهما:

⇐ كتمان الحق و
⇐ إلباس الباطل ثوب الحق،
وهذا المعنى تكرر عدة مرات في كتاب الله

- ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة: 42]
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]
- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: 71]

فنحن نظن أنّ البلاء يعم على الأمة، وتتكاثر الشدائد والمحن، وتشتد الصعاب يوم أن يكتم "الذين يعلمون" الحق، لا بل تتفتت الأمة بأكملها وتنهار وتفقد هويتها وتتفرق إلى فرق وطوائف عندما تقوم فئة من العلماء بالفعل المشين ألا وهو إلباس الحق بالباطل (أو إلباس الباطلَ ثوبَ الحق)، فهناك فئة من العلماء لا تقف عند كتمانهم الحق، وإنما تقوم بما هو أدهى وأمرّ: تزيين الباطل بقشور من الحق، فيلبسون الباطل ثوب الحق، فيضلّوا الناس عن علم، لأنّ الناس العاديين مجبولين بطبعهم على علم بالقشور، قال تعالى:

- ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الروم: 6-7]

فإذا ما قامت فئة من العلماء بتزين الباطل بظاهر من الحق حسبه الغالبية الساحقة من الأمة أنه الحق بعينه (ربما كما أفعل أنا الآن)، فوقعوا فريسة سهلة، تستطيع تلك الفئة من العلماء أن يسيّروهم كما يريدون، وفي المقابل قامت فئة أخرى من العلماء برفض الرأي الأول متسلحين بالدليل ولديهم المسوغات والمبررات على صدق دعواهم (كما يظنوها هم)، وعندها يدبّ الخلاف بين علماء الأمة فتضيع الحقيقة في صراع فكري لا يرضي جميع الأطراف على حد سواء، فيذهب كل طرف في طريق قلما تلتقي مع طريق الفريق الآخر، ويبدأ كل طرف منهم بحشد التأييد لرأيه وموقفه، فينبثق عن هذا الطرف أهل.....، وعن الطرف الآخر أهل..... . ويصعب على الإنسان العادي (من مثلي) أن يميّز إلى أي أهل يحسن به أن ينتمي، وبسبب صعوبة التمييز يؤثر عندها أن يرث فرقته وأهله كما ورث دينه أصلاً، فإن هو ولد من عائلة تنتمي إلى أهل ....، أصبح هو من نفس العائلة والفرقة والطائفة، وغالباً ما يقوم بالدفاع عن طائفته حتى لو لم يكن على علم بمفردات تلك الطائفة. وهذا ما نفهمه من قوله تعالى:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: 19]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: 14]
- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: 17]

فهذه الآيات الكريمات تشير جميعها إلى أنه عندما جاءهم العلم (أي العلماء) اختلفوا (ومن ثم تفرقوا) ليس لأنّ العلم الذي جاء يمكن أن يفسّر أو أن يُحمل على أكثر من وجه، وإنما كان سبب الاختلاف هو البغي بينهم، فكيف يكون ذلك؟
لقد نهى الله في سياق الموضوع نفسه عن إحداث الفرقة بين الناس، قال تعالى:

- ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: 13-15]

فلقد نهانا الله أن نتفرق في الدين "**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**"، ولكنه أثبت في الوقت ذاته أن تلك الفُرقة لم تحصل إلا بعد أن جاءنا العلم "**وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ**"، ولم يكن ذلك إلا لشيء واحد ألا وهو: البغي "**وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**".
فما هو البغي إذاً؟ إننا نفهم أن البغي في سياقه القرآني يعني انتصار طائفة على أخرى، قال تعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: 39]
- ﴿۞ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج: 60]
- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: 76]

- ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: 22]
- ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ٢٤﴾ [ص: 24]
- ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾ [الشورى:42]
- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9]

فالله سبحانه قد حرّم البغي بغير الحق:

- ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: 33]

فنهانا عنه:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: 90]

فالذي يبغي على الآخرين هو من يرفض الحق الذي جاء من عندهم ليس لأنه يرى أن قولهم خاطئ وإنما كرهاً بالمصدر الذي جاء من عنده:

- ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [البقرة: 90]

افتراء من عند أنفسنا: إننا نعتقد أنّ بعض علماء الفرق الإسلامية ترفض الرأي الآخر ليس لعلمهم بخطأ ذلك الرأي (ووجود الدليل على ذلك، وتوافر القناعة لديهم) وإنما كرهاً بتلك الطائفة التي تتبنى ذلك الرأي، فلقد رفضت ثلة من بني إسرائيل –كما تشير الآية السابقة- الحق الذي جاء به محمد (وكثير من الأنبياء السابقين) ليس ليقينهم أن هؤلاء مخطئون، وإنما "**بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**". لقد عطّل كرهم لغيرهم بصيرة قلوبهم، وهذا واضح تماماً في السياق الأوسع الذي وردت فيه الآية الكريمة السابقة:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن

يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ [البقرة: 89-90]

لذا فلقد رفض فرعون رسالة موسى ليس لقناعته بعدم صدق الرسالة وإنما كرهاً ببني إسرائيل:

- ﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ [يونس: 90]

ولو دققنا النظر في الآية الكريمة لوجدنا أن البغي عادة ما يكون على من حولك وخصوصاً بين المتجانسين:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ [النحل: 90]

فالله سبحانه يأمر بثلاث أشياء هي (1) العدل (2) الإحسان (3) إيتاء ذي القربى وينهى عن ثلاثة أشياء هي (1) الفحشاء (2) المنكر (3) البغي، أليس كذلك؟ ولو دققنا النظر في التقابل الذي تفرضه الآية نفسها لوجدنا أن النقيض من العدل هو الفحشاء وأن النقيض من الإحسان هو المنكر وأن النقيض من إيتاء ذي القربى هو البغي.

المفردة (المطلوب)	المفردة المقابلة (المنهي عنه)
العدل	الفحشاء
الإحسان	المنكر
إيتاء ذي القربى	البغي

فها هو قارون من قوم موسى فيبغي عليهم:

- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ [القصص: 76]

وها هم الأخوة يبغي بعضهم على بعض:

- ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ [ص: 22]
- ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ [ص: 24]

فالناس هم ذو قربى لبعضهم البعض، ولكن عندما يختاروا أن يكرهوا بعضهم البعض، ويرفضوا آراء بعضهم ليس لصحة الرأي أو لخطأه وإنما كرهاً بصاحب الرأي يصبح ذلك بغياً بينهم، فتعتدي طائفة على أخرى، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9]

فالعلاقة بين الناس يجب أن تخلو من البغي وتكون متوازنة كذاك التوازن الذي تصوره الآية الكريمة التالية:

- ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠﴾ [الرحمن: 19-20]

فالبحران بينهما برزخ يمنع أحدهما أن يبغي على الآخر، فحتى لو كان أحدهما بحجم المحيط والآخر بحجم البحر الصغير فلا يحق لأحدهما أن يبغي على الآخر، لأن ذلك سيترك الكون كله في فوضى عارمة. وأظن أن هذا ما يجب أن يبنى عليه علاقة الأغلبية بالأقليات الموجودة في كل مجتمعات الأرض.

ونقف هنا للحظة للتمييز بين من يقع في الخطأ وهو غير عالم أنه مخطئ (كحالتي)، ومن يقع في الخطأ وهو عالم به (كحالتي أيضاً)، أي يقع في الخطأ على علم، فهؤلاء هم من أضلهم الله على علم، وهنا تكمن المشكلة، فنحن إذاً مدعوين للتمييز بين نوعين من العلماء الذين قد يقعون في الخطأ، فمن العلماء من يقع في الخطأ على غير علم به (ربما لخطأ في القياس أو الاستنباط، الخ)، ولكن بعضهم قد يقع في الخطأ وهو عالم به، والقرآن الكريم يسمي هذه الفئة من الناس بالظالمين:

- ﴿... وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]

فمن جاءه العلم واتبع غير سبيل الحق فهو – دون أدنى شك- من الظالمين، فالظلم كما يرد في القرآن الكريم يعني في ظننا "ارتكاب المعصية بالرغم من العلم فيها"، فلا يسمى من يقع في المعصية ظالماً إلا إذا كان قد امتلك العلم فيها من قبل، فها هو آدم يحذره ربه من أن يكون من الظالمين بعد أن أودعه الله العلم بما لا يجب عليه فعله، وهو الأكل من الشجرة، فقول الله يشير صراحة إلى أنّ آدم سيصبح من الظالمين إنْ هو أكل من الشجرة، قال تعالى:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف:19]

وكما وقع آدم في المعصية بالرغم من أنّ الله قد أودع فيه العلم من ذي قبل ونبّهه إلى خطر المعصية التي سيقع فيها، أوقع موسى نفسه في الظلم لأنّ الله كان قد أودع فيه العلم قبل الوقوع في المعصية، ولننظر إلى كيفية اعتراف نبي الله موسى بذنبه:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى

مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 14-16]

وهكذا كان خطاب ذي النون من قبل:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

فالمطلوب من الإنسان ليس "عدم الوقوع في الظلم" وإنما عدم الإقرار به أو عدم الرجوع عنه بالتوبة ليشمله الله بالغفران. فها هم الأنبياء أنفسهم يقعون في الظلم (أي الذنب بعد العلم)، ولكنهم لا يصرّون عليه، بل يبادرون بالاعتراف بظلمهم، فيتوجهوا إلى الله بالتوبة، فيغفر الله لهم لأنه "**هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**". فمن أهم سمات المؤمنين أنهم لا يصرّوا على ذنب عملوه إن تبيّن لهم خطأهم:

- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: 135]

دعاء: ربنا إنا ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم

وبهذا نصل إلى استنتاجات مهمة تتمثل بما يلي:

⇐ الإقرار بأن العلماء قد يقعون في الخطأ عن غير علم
⇐ الإقرار بأن العلماء قد يرتكبون الظلم (اقتراف الخطأ) عن علم
⇐ حاجة العالم إلى الرجوع عن الخطأ والتوبة والبراءة منه إن علم أنه مخطئ

وهنا قد يبادرنا البعض بالتساؤل التالي: كيف يقع العالم في خطأ وهو عالم به؟ فنرد بالقول أن ذاك وارد جداً، وما يهمنا هنا هو الخوض في صورتين اثنتين ذكرناهما سابقاً، نستطيع استنباطهما من قوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة: 42]

⇐ كتمان الحق (وعدم البوح به)
⇐ إلباس الحق بالباطل

ولا شك – لدينا- أن كلا الصورتين على درجة من القبح حتى استحقا النهي (والذم) الصريح من رب العباد في كتابه الكريم. ونحن نظن أن النوع الأول **ولا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ** أشد خطراً على الأمة من النوع الثاني **وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**. فالأسلوب القرآني في النهي والزجر عادة ما يبدأ بالأشد خطورة، قال تعالى:

- ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: 151]

فالشرك لا شك أشد خطورة من باقي الذنوب.

المهم في الموضوع هو الاستنباط الذي خرجنا به وهو وجود نوعان من العلماء:

⇐ فهناك نوع من العلماء يرى الحق واضحاً بيّنا، ولكنّه يؤثر السكوت وعدم البوح به (وبكأن الأمر لا يعنيه)، فهؤلاء العلماء –حسب ظننا- هم السبب المباشر في خنوع الأمة وسكوتها، فنحن نظن أن الأمة تتوقف عن التقدم إلى الأمام متى كتم علماؤها الحق، وآثروا أن لا يرتفع صوتهم به.

⇐ وهناك النوع الآخر من العلماء وهم الذين يرون الحق واضحاً بيّناً ولكنهم يستخدموه كسوة للباطل، فيروجوا للباطل بثوب الحق، ولعلي أجزم أن هذا النوع هو أشد خطراً من النوع الأول، بالرغم أن كليهما مذموم بقول رب العالمين، لأن هذا النوع من العلماء هم السبب المباشر ليس فقط لركود الأمة وإنما السبب في تفتت الأمة إلى طوائف وملل متناحرة ومتصارعة، يكون هدف كل منهم إثبات أنه هو (وليس خصمه) على حق، فينقلب الموقف من بحث عن الحقيقة أينما كانت وحيثما حلت، إلى بحث عن أدلة على صدق موقفه، وعندما تتعارض بعض الأدلة والشواهد مع موقفه يقوم بتحريفها ولو بالتأويلات المجازية حتى يخضعها لموقفه، فبدل أن يخضع رأيه للنص، يلوي عنق النص ليوافق رأيه، وهنا تبدأ الفرقة بين علماء الأمة.

وربما لا نحتاج إلى كثير عناء للتمثيل على النوع الأول من العلماء وهم من يكتم الحق، فأصوات العلماء التي لا ترتفع بقول الحق لأي سبب كان هي دليل ملموس في كل مكان وزمان. فكم من علمائنا يعرف الحق ولكنه لا يرفع صوته به، فلو كنت معه في جلسة خاصة لسمعت منه كلاماً غير الذي يقوله على الملأ، فهم لا يبوحون بما يعلمون.
ولكن تكمن المشكلة الأكبر في النوع الأخر الذي يصعب تميزه، وهم الذين يلبسون الحق بالباطل، ولكن من هم هؤلاء؟

إننا نعتقد أنهم الذين يحاولون إيجاد التبريرات للباطل، وهذا هو لب النقاش الذي سنستطرد به في مقالتنا هذه.
إننا نزعم أن إيجاد المبررات لشيء في أصله خطأ هو الظلم بعينه مهما كانت درجة الإقناع، ومهما كانت تلك المبررات التي يسوقها العالم للتدليل على وجاهة رأيه، فلقد ساد في الفكر الديني مقولة فحواها الأخذ بالظروف السائدة، فتم إخضاع الفتاوى الدينية لظروف الحال (المكان والزمان)، وهذا بالضبط ما لا نتقبله على الإطلاق، ونعتقد أنه سبب الوقوع في الظلم، فعندما يسوق العالم المبررات لدعم رأي هو في الأساس خلاف الأولى متعللاً بالظروف والأحوال فهذا لا شك سيؤدي بالتالي إلى الوقوع في الظلم.

فنحن نؤمن أن الفتوى الدينية يجب أن تكون مستقلة عن ظرف المكان والزمان، ولا يجب أن تتغير بتغيره، لأن ذلك سيفتح المجال لجميع التأويلات والتفسيرات التي لا شك ستجد المبرر والحجة

لذلك، وبالتالي سيصبح الأمر الديني متقلباً ومتغيراً لا يحتكم إلى النص الديني، وإنما إلى تأويلات متباينة مدفوعة بعوامل خارجية لا قيد لها ولا ضابط، ولو كان هذا الأمر مقبولاً لما كان هناك حاجة أصلاً إلى النص الديني. وتستطيع التأكد عملياً من وجاهة ما نزعم على النحو التالي: قم بعرض فتوى معينة على فئة من العلماء في بلد ما وتحت نظام سياسي معين، وقم بعرض تلك الفتوى على علماء غير محكومين بتلك الظروف ولا بسلطة ذلك النظام السياسي عليهم، فإن اختلفت الفتوى تستطيع عندها أن تدرك أنّ ظلماً قد وقع، ولكن إذا لم تتغير الفتوى بتغير الظرف فذلك يعني عدم وقوع الظلم.

إننا نؤمن أنه مهما كان المسوغ ومهما كان الظرف السائد فلا يجب أن يكون ذلك سبباً في إتباع ما هو خلاف الأولى، فما يحكم الفتوى الدينية هو النص الديني فقط، أما ظروف الزمان والمكان فلا يجب أن تقدّم بأي شكل من الأشكال على النص الديني، لأن ذلك سيكون مدفوعاً بقوة الحجة، فصاحب اللحن في الحجة عنده القدرة على قلب الحقائق، وجميعنا يعرف أن هناك جماعة من الناس لديهم القدرة على قلب الأبيض إلى الأسود، والأسود إلى الأبيض، وهنا سيقع الناس في حيرة، تارة يميلون مع هذا الرأي وتارة مع الرأي الآخر، تبعاً لمصالحهم وظروفهم، فتنقلب حال الأمة إلى مؤيد ومعارض، ونحن كأمة ليس لنا إلا سبيلاً واحداً مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف:108]

فنحن نربو بالأمة أن يكون تبرير الخطأ هو منهجها، فأنا شخصياً لا أجد أجدر (ولا أقوى) من حجة إبليس يوم أن رفض السجود لآدم:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ١٢﴾ [الأعراف: 12]
- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ٧٦﴾ [ص: 75-76]

أليست تلك حجة مقنعة؟ لِمَ يسجد إبليسُ لآدم؟ أليست الأسبقية في الخلق لإبليس؟ أليست الخيرية في مادة الخلق لإبليس؟ لِمَ إذاً يطلب منه السجود لآدم؟ ألا ترى -عزيزي القارئ- أن في حجة إبليس منطق مقنع؟ إنني لا أجد تبريرات علمائنا الأجلاء للخطأ بأعظم ولا بأجدر من حجة إبليس يوم أن رفض السجود لآدم، ولكن يبرز السؤال الأكبر: هل تُبرّر حجة إبليس رفضه الأمر الإلهي بالسجود لآدم؟
إننا ندعو علمائنا الأجلاء أن لا يكون ذلك هو ديدنهم: تبرير ما لا يبرر، فالخطأ خطأ، والصواب صواب، مهما قدمت التبريرات ومهما سيقت الأعذار والمسوغات، وحتى لا يبقى كلامنا هذا في إطاره النظري سنقدم الأمثلة التي ذكرناها في المقدمة لبيان حجتنا هذه (التي ربما تكون من نفس الباب: تبرير الخطأ)

حرب الخليج

لقد شقت تلك الحادثة التاريخية صف الأمة شقاً عظيماً، واختلاف الناس في تحليلها ومن ثم اتخاذ الموقف المبدئي منها، وشق ذلك الاختلاف طريقه إلى فتاوى علماء الأمة بين من يعارض ومن يؤيد، فأصبح العالم الإسلامي صفين متباينين في الرأي والموقف. وما يهمنا في هذا الطرح هو الإطار العام لموقف السادة العلماء، وتتلخص المعضلة بأكملها في جملة واحدة: هل فعلاً كان كلا الرأيين صائباً؟ لا أظن ذلك. وأنا أعتقد أن أحدهما هو الرأي الصائب أما الآخر فهو رأي باطل ألبسه أصحابه ثوب الحق. فأي الرأيين هو الرأي

الصائب؟ إننا نظن أن الإجابة على هذا التساؤل قد يتجلى إن نحن طرحنا سؤالاً آخر، ألا وهو: ماذا كان موقف السادة العلماء من ذلك الأمر قبل حدوثه؟ وبكلمات أدق، كيف كان رأي السادة العلماء قبل تلك الحادثة؟ وبكلماتنا نحن، يكون السؤال على النحو التالي: ما هو موقف السادة العلماء من الأمر دون إخضاعه لظروف الزمان والمكان؟

لقد كنت في تلك الفترة لازلت شاباً يافعاً (أحلى شاب في العالم) باحثاً عن إشباع شهواتي، ولم أكن بأي حال من الأحوال أعلم أن لي موقفاً مبدئياً ثابتاً من أي شيء، وكنت أتغير بين ليلة وضحاها، فأنا في الصباح غير أنا في المساء، في الصبح عبادة وفي المساء صياعة، والعكس تماما في اليوم التالي، ولكني كنت أسمع في لحظات العبادة القليلة في مساجد العالم الإسلامي إما مباشرة أو من خلال التلفزيون والراديو (وأحياناً أقرأ في الجرائد والمجلات) دعوة السادة العلماء إلى وحدة الأمة بأكملها، ولسان حالهم يقول أن لا شيء يعدل مثل هذا الهدف، فهو الهدف الأسمى لهذه الأمة، وقد كانت كتب التربية الإسلامية والتاريخ والجغرافيا وحتى كتب الطبخ والرياضة تلعن بأشد عبارات السب والشتم اتفاقية سايكس بيكو التي قسّمت الأمة إلى دويلات ومزارع على غرار George Orwell's Animal Farm . وقد كان خطاب العلماء من المحيط إلى المحيط (وليس فقط إلى الخليج) هو التخلص من تلك الاتفاقية اللعينة الشيطانية، التي صاغها السياسيون الغربيون الحاقدون وعاونهم على تنفيذها الخونة والعملاء من أبناء هذه الأمة حكّاماً ومحكومين (هذا ليس كلامي، بل هو ما فهمته من لغة المنابر والمساجد قبل حرب الخليج الأولى – وأرجو أن يصححني من عاش في تلك الفترة إن كنت مخطئاً). وجاءت حرب الخليج ووضعت اتفاقية سايكس بيكو على المحك، وأصبح هناك فرصة للتخلص من تبعات تلك الاتفاقيات الغربية التي حيكت ضد هذه الأمة، وتم التخلص من واحدة من تلك المزارع الصغيرة. وبرزت الحاجة إلى استصدار الفتاوى بخصوص تلك الحادثة، فصدرت الفتاوى في اتجاهين اثنين متعاكسين، فكان أهل العلم في الصف الداعم لصدام حسين يتغنون بأمجاد الماضي القديم الذي هو عائد لا محالة على أيدي هذا "البطل الهمام"، وكان العلماء في الطرف الآخر يتوعدون هذا "الشيطان الرجيم" بالعقاب الصارم بكل الوسائل التي يمكن الوصول إليها، ونحن هنا نثير تساؤلا بسيطاً جداً: يا ترى: هل هذا هو ديننا؟ هل عجز إسلامنا وكتابنا وسنتنا أن يدلّنا على الحق؟ لقد صاغ العلماء في الجانبين حججهم متسلحين بظروف الحال والمكان، أليس كذلك؟ ولكن ألم يكن كل منهم يملك حجة توازي حجة إبليس (إن لم تكن تفوق عليها) في الدهاء والمكر؟ وأين سأكون أنا الذي لا استطيع أن أميّز الغث من السمين في تلك اللحظة؟ إلى أين سأنظم؟ إلى جيش معاوية أم إلى معسكر علي؟! ألا يقع إثمي (بغض النظر عن المعسكر الذي اخترت الانتماء إليه) على كاهل هؤلاء العلماء الذين أوقعوا الأمة بأكملها في حيرة لم تستطع حتى اللحظة الخروج من نتائجها الكارثية.

لقد اختار الكثيرون من علماء الطرف الأول مساندة صدام حسين مدفوعين (على ما أظن) بالقهر الذي كانوا يشعرون به من كل ما يتمتع به أهل الخليج من الثراء، فهم يظنون أن تلك الثروة يجب أن تكون من مقدرات الأمة بأكملها، وها هو المخلص الذي سيعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، وفي المقابل اختار الكثيرون من علماء الطرف الثاني (على ما أظن) الحفاظ على مكتسبات يصعب التنازل عنها، ولكن الأمر الذي لا يمكن المجادلة فيه هو قيام كل طرف بإلباس فتواهم ثوباً دينياً، فها هو الطرف الأول يختار النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو إلى الوحدة ولمّ الشمل (حتى لو كان ذلك بالقوة)، وها هو الطرف الثاني لا يجد حجة أقوى من مقاتلة الفئة الباغية، المهم بالأمر أن كلا الطرفين أخضع فتواه للتأويل المدفوع بظروف المكان والزمان، فحتى يبرر الطرف الأول حجته ذهب إلى القول بأن صدام حسين سيوحّد

صف الأمة وينقذها من تبعات سايكس بيكو وكل مؤامرات الغرب، وبالغ الطرف الآخر في شيطنة الرجل حتى أصبح التخلص منه ومحاربته أمراً مواز في الأهمية والأولوية محاربة الشيطان الرجيم نفسه، وكان المشهد في مساجد الوطن العربي (وحتى العالم الإسلامي بأكمله) على النحو التالي: فريق يرفع يده إلى السماء يدعو لصدام بالنصر وآخر يرفع يديه يدعو عليه بالذل والخزي. فـ إلى من سيستجيب ربنا الذي في السماء؟ لقد استجاب الله دعاء الطرف الثاني فأذلّ صدام وهزمه، أليس كذلك؟ لقد هزم صدام بدعاء مساجد ذلك الطرف؟ وكانت تلك الحجة الأقوى لهذا الطرف: فلو كان صدام مخلصاً لهذه الأمة -كما تظنون- لنصره الله، ولكن انظروا كيف كانت خاتمته؟ لقد كانت هذه هي النتيجة التي خلص إليها السواد الأعظم من الناس الذين لا يتعدى علمهم الظاهر من الحياة الدنيا (العلم بالقشور). وقد أخذ بعض أهل الفريق الأول يتراجعون عن موقفهم ظانين أنهم (ربما) كانوا مخطئين، وخرجت بعد ذلك الدعوات إلى التقارب من جديد، وتناسي الماضي وفتح صفحات جديدة في كتاب هذه الأمة؟ ولكن يبقى السؤال التالي: ماذا لو حصلت للأمة مشكلة مشابهة (إن شاء الله)، كيف سيكون موقفهم تجاهها؟ إنني لا شك قيد أنملة أنها ستشق الأمة من جديد كما انشقت دائماً. وهذا سيثير تساؤلاً بسيطاً: لماذا؟ الجواب (حسب ظني): أنهم مرض هذه الأمة وعلتها الأولى: العلماء.

ولكن النقاش السابق يثير لدى القارئ الكريم سؤالاً مفاده: أي الفريقين كان على حق؟ وأي الفريقين كان يلبس الباطل ثوب الحق؟

فأرد على هذا التساؤل بالقول أنني لن أدلي برأيي في هذا الموضوع، ولكني سأقترح طريقة بسيطة جداً يستطيع القارئ من خلالها الإجابة بنفسه على هذا التساؤل (وكل تساؤل مثله).

تتمحور الطريقة التي أظن أنها ستخرج الأمة بأكملها من فوضى الفتاوى بالاقتراح التالي الذي يمكن أن نستنبطه باستدعاء آية قرآنية واحدة ستحل الإشكال برمته، والآية الكريمة هي ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ٦١﴾ [آل عمران: 61]

نعم، لنجمع علماءنا الجاهزين على الدوام (أو ما يسمى on call باللسان الأعجمي) لإصدار الفتاوى، ثم نطلب منهم أن ندعو "**أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ**" ثم " **نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**".

هل هذه هي الطريقة؟ ربما يرد البعض بالقول، نعم، هي كذلك، تدبر –عزيزي القارئ- الآية التي تلي الآية السابقة مباشرة:

- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٦٢﴾ [آل عمران: 62]

مما لا شك فيه أن كثيراً من علمائنا الأجلاء سيتردد ألف مرة قبل أن يبتهل ليجعل لعنت الله على الكاذبين، ألا ترون ذلك معي؟ فلنمعن التفكير في النتيجة التي يقررها ربنا إن حصل ذلك في الآية التالية مباشرة:

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63]

نعم، هؤلاء هم المفسدون. إنهم الذين لا يؤمنون إيماناً مطلقاً بما يقولون، همهم فقط فلسفة الكلام واصطياد المواقف، ونحن نظن أنهم بذلك إنما يقلبوا الدين من تشريعات ربانية سماوية إلى فلسفية بشرية أرضية.

ولكن ربما يرد البعض بالقول: ماذا لو فعلوا؟ ماذا لو فعلاً ابتهلوا فجعلوا لعنت الله على الظالمين؟ فنرد بالقول: هل كان هذا الابتهال صادقاً أم كاذباً؟ فإن استطاعوا أن يخدعوا الناس العاديين، هل يستطيعون أن يخادعوا الله أو أن يخدعوا أنفسهم؟ لا شك أنهم لن يستطيعوا أن يخدعوا الله، أما أنفسهم فإن خدعوها مرة لن يستطيعوا أن يخدعوها كل مرة، لأن الله قال:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: 82]

فمن أين للعالِم أن ينعم بالأمن (حتى مع نفسه) إن هو ألبس إيمانه بذاك الظلم؟

وللتدليل على الموقف: دعنا نوجه إلى علمائنا الذين يدعون لحكامنا على المنابر بطول البقاء والتأييد سؤالاً بسيطاً: هل فعلاً تؤمنون بذلك؟ هل تعتقدون بصحة ما تفعلون؟ هل تعتقدون فعلاً أن للحاكم الذي تدعون له شرعية دينية؟

وتستطيع أن تكشف صدق دعواه بكل يسر وسهوله: فلو راقبته جيداً لوجدت أنه يناقض نفسه من موقف إلى آخر، وربما في الموقف الواحد، فلو أجرت معه قناة الجزيرة - مثلاً - لقاءً عن مشاكل الأمة وهمومها لأطاح برؤوس حكام العرب والمسلمين إلى الدرك الأسفل من النار، ولكن لو حدث وأن أجرت معه قناة بلده المحلية لقاءً عن انجازات قيادته الرشيدة، لما ترددت لحظة واحدة أن تستنبط من فتواه (هذا إن لم يكن قد قالها بصريح اللفظ) أن صاحب الجلالة أو السمو أو الفخامة لن يسبقه سوى محمد بن عبدالله إلى أعلى درجات عليين، إنه نفس العالم الذي كان يتحدث قبل قليل عن جواز ضرب عنق الحاكم الآخر لأنه –حسب معتقده الديني- لو حدث أن أصبح للأمة حاكمين لجاز ضرب رأس أحدهما، ولكن بالنسبة له فالأمر بسيط ومعلل: لا ضير أن يضرب رأس أي حاكم في سبيل وحدة الأمة ما عدا "صاحب" المزرعة التي يعيش هو فيها.

وتستطيع بكل يسر أن تكشف صدق العالم من كذبه بطريقة أقل يسر وسهوله: اسأله عن أمر لا يخصه بالذات ثم أتبع ذلك بما يخصه، وانظر كيف ينتقل إلى المجادلة وإلباس الحق بالباطل إن هو وقع فريسة كلامه، فعلى سبيل المثال، اسأله عن مسألة انفصال جنوب السودان أو استقلال شمال العراق بالقول: ما رأيك بما يدور في السودان بخصوص مسألة الانفصال؟ أو ما رأيك باستقلال الأكراد في دولة خاصة بهم في شمال العراق؟ وما ظنك بمشكلة الصحراء الغربية؟

لا شك أنك ستجد الغالبية الساحقة من علماء الإسلام ينكرون مثل هذا الصنيع، فهم لا يقبلوا أن تكون جنوب السودان دولة مستقلة، والويل كل الويل للأكراد ولمن يقف في صف البوليساريو من عذاب ربهم يوم القيامة كيف يشرخون وحدة هذه الأمة، وهكذا من عبارات الاستنكار والشجب، وعيونهم تقطر دمعاً على هذه الأمة التي تتمزق من أطرافها، ولن يغيب تاريخ الأندلس وكارثة فلسطين عن خطاباتهم هذه، وسيجلبون لك عشرات الآيات الكريمة التي تدعو إلى الوحدة ومئات الأحاديث التي ربما تكفر من تسوّل له

نفسه شق صف هذه الأمة الخالدة الواحدة التي مثلها كالجسد الواحد الذي إن اشتكى منه عضو تداع له سائر الجسد بالحمى والسهر، أليس كذلك؟

والآن جاء دور سؤالك المفاجئ: فما رأيك باستقلال البحرين والإمارات ولبنان والأردن وتونس، الخ، كدول ذات سيادة؟ هل هذه (وكل الكيانات الأخرى من المحيط إلى الخليج دون استثناء) كيانات ذات سيادة تستحق منك أن تدافع عنها يا عالمنا الجليل؟ كيف ينبرى صوتك وترتفع حنجرتك بالتصدي لانقسام السودان والعراق ولا ينبري صوتك لاستقلال تلك المزارع التي في معظمها لا تملك ولو جزءاً من مقدرات جنوب السودان أو شمال العراق؟ لم تقبل أن تكون هنا دولة ذات سيادة تستحق أن تدافع عن استقلاليتها بكل ما آتاك الله من علم، ولا ترضى في الوقت ذات أن تكون هناك دولة مستقلة في شمال العراق بالرغم من أن عناصر الديمغرافيا والجغرافيا والتاريخ وغيرها تؤهل الشمال أكثر من الجنوب ليكون كياناً مستقلاً؟ ثم، ألا تملك جنوب السودان مقومات دولة تزيد عن ما تملكه عشرات المزارع العربية الأخرى؟ أيهما أحق بالانفصال جنوب السودان أم لبنان؟ لم ترتفع الاصوات و يجتمع زعماؤك وقادتك ومن ورائهم علماؤنا الأجلاء للتأكيد على سلامة لبنان واستقلاليته ولا يجتمعوا للمطالبة بحق تقرير المصير لجنوب السودان أو شمال العراق؟!

الجواب الجاهز عند هذه الشرذمة من العلماء: يكفي هذا الانقسام الحاصل فلم نزيد الطين بلة! ربما هكذا سيرد معظم علمائنا الأجلاء.

ولكن يا سادة هل هذا هو موقف الدين؟ هل هذا هو إسلامنا؟ هل نعطي الفتوى الشرعية (الرخصة) لما حصل وتم، ونتوقف عن إعطائها لما سيحصل؟ هل هو حق لمن حصل عليه وليس حق لمن لم يحصل عليه بعد؟ لقد أذهلني موقف بعض علماء المسلمين في جنوب السودان عندما نادوا بأن هذا شأن دنيوي ولكل شخص الحق في الاختيار؟ هل فعلاً عجز ديننا أن يكون له موقف ثابت من مثل هذه القضايا؟

أقول لكل علماء المسلمين لا يجوز لكم أن تحلوا لأنفسكم ما تحرموه على غيركم، لو فعلاً اتخذ علماء المسلمين موقفاً مبدئياً مدفوعاً بالفتوى الدينية ومجردة عن العوامل الخارجية رضي من رضي و غضب من غضب، وطبقوها على أنفسهم (قبل أن يطالبوا غيرهم بتطبيقها) لما استطاعت أن تعلو حنجرة واحدة بعكس ذلك؟ ولكن كيف لك أن تطبق الدين عليّ ولا تطبقه على نفسك؟ أليس تلك إذاً انتقائية مقيتة؟ أليس من حقي أن أحصل على ما كنت قد حصلت عليه أنت؟ كيف بك تهاجم دعاة القومية في شمال العراق أو جنوب السودان وأنت نفسك من تدافع ليس فقط عن القومية بل عن القومية القُطْرية التي لا تستند إلى أي مقومات الاستقلال أو السيادة؟

إنّ من يرضى بأي قطر عربي كوحدة سياسية مستقلة ذات سيادة لا يجوز له أن ينبت ببنت شفة أو أن يصدر الفتاوى بخصوص استقلال أقطار وظهور قوميات جديدة. إن الذي قبل أن تكون لبنان أو الأردن أو الكويت أو السعودية أو سوريا أو مصر دولا وكيانات مستقلة لا يجب عليه أن يخضع غيرهم لفتاوى الدين التي تحرم عليهم الاستقلال أو الانفصال، فلا تحلوا لأنفسكم ما تحرموه على غيركم.

أيجوز أن تتمتع كل حارة في دول الخليج بثروة النفط الذي تمتلكه ومن ثم تحرّم ذلك وتمنعه عن شعب بأكمله في جنوب السودان تفوق مساحة بلدة المفترض مساحة فرنسا العظيمة؟ كيف بك تجيز لنفسك التمتع بثروات محافظة كانت يوماً في جنوب العراق وتحرّم ذلك على عدة محافظات مجتمعة في شماله؟

عزيزي العالم، إنّ من أراد أن يتصدى لهمّ الأمة أو أن يتكلم بشأن الفتوى فعليه أن يتحمل هو نفسه تبعاتها قبل غيره حتى لو كان ذلك يمسّه شخصياً، فالعدل العدل، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ [المائدة: 106]
- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: 152]

فـ يا أيها العلماء دعوني أذكركم بأن هؤلاء الذين تنحازون إلى صفهم لن يغنوا عنكم من الله شيئاً، ولن يحملوا من أوزاركم شيئاً، فاتقوا الله في الناس واتقوا الله في أنفسكم:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [فاطر:18]

المثال الثاني: العمل في دول الخليج

الفتوى: حرام حرام حرام

نعم، إننا نعتقد أنه لا يجوز العمل في دول الخليج العربي، وعلى كل مسلم ومسلمة يعمل في تلك الدول أن يتنازل عن عمله ويعود إلى بلده فوراً، ونحن نظن أننا نملك الدليل من كتاب الله على هذه الفتوى التي نشعر أننا على استعداد أن نتحمل تبعاتها الدنيوية والأخروية (في الدنيا والآخرة).

وحتى نوضح ما نقصد من هذه الفتوى، فيجب أن نذكّر مرة أخرى في هذا المقام بالتساؤل الذي دافعنا عنه في المقدمة ألا وهو: هل يجب أن نتذرع بالحجج (الواهية) مهما بلغت من قوة في الإقناع إن هي عارضت النص الديني؟ الجواب كلا، فلا يجب أن يتقدم أي عذر أو حجة على صريح اللفظ في النص الديني الذي يجب أن نحتكم إليه، فالوقوف عند النص هو من أهم سمات فكرنا الديني الإسلامي، وإذا ما أصبح هناك تعليل عارض صريح ومضمون النص فيجب أن يضرب بذلك التعليل عرض الحائط، ونحن نفهم أن الالتزام بالمسلمات الدينية أهم بكثير من التبريرات التي يمكن أن تساق لمخالفة تلك المسلمات.
ولهذا فإننا نؤمن أن المسؤولية الأولى للعلماء هي: أن ينبري كل عالم للدفاع عن قداسة النص الديني، وليس تبرير ما يخالف النص الديني، وفي هذا سؤالُ يطرح على كل علماء الخليج العربي أولاً (وهم الذين غزوا الفضائيات وهدفهم لا شك لتكون كلمة الله هي العليا)، وعلى بقية علماء الإسلام من بعدهم، سؤال فحواه:

أيهم أعلى مقاماً وأرفع منزلة –حسب فكرنا الديني- المسلم أم غير المسلم؟ لا أظن أن أحداً من علماء الإسلام يستطيع أن يجادل في أن المسلم يجب أن يقدم على غير المسلم في كل شيء، أليس كذلك؟

ولو قرأنا نصوص كتابنا العزيز لوجدنا العشرات من الآيات الكريمات التي تقدم المسلم على غير المسلم، ولوجدنا الآيات التي ترفع من شأن المسلم وتحط من شأن غير المسلم، ولو تفحصنا السنة المطهرة لوجدناها تطبيقاً عملياً لمثل هذا الاعتقاد، ولما وجدناها خالفت هذا المبدأ تحت أي ظرف أو بأي حجة كانت.

ويقودنا هذا الفهم إلى إثارة تساؤلاً بسيطاً: هل انبرى علماء الإسلام للدفاع عن هذا المبدأ؟ ألا يرى علماء الإسلام حق المسلم ينتهك صباح مساء مقابل ما يتمتع به غير المسلم في بلاد الإسلام نفسها؟ وفي الجهة الأخرى كيف يقبل من يظن نفسه مسلما أن يعامل بطريقة دونية، يُقدّم فيها غير المسلم عليه في كل شيء، لا شك أنهم يتعللون بحجج ودوافع الزمان والمكان والحاجة الملحة، الخ. ولكن هل تجوع الحرة لتأكل بثدييها.

وحتى لا يبقى كلامنا نظري فإننا نقدم مثال العمل في دول الخليج (ولا يظن أحد أن هذا ينطبق على دول الخليج فقط وإنما هي الحال في كل بلاد الإسلام، ولكن المشكلة أكثر وضوحاً في دول الخليج لحجم العمالة الأجنبية فيها).

لعل كل الذين عملوا (وربما الذين لم يعملوا في دول الخليج) قد علموا بخبر الفرق في الأجر بين من هو خليجي ومن هو غير خليجي، ففي حين يتقاضى الخليجي أجراً يفوق أضعاف ما يتقاضاه الوافد المسلم، ما يكون من أمر هؤلاء "الغرباء" إلا أن يقبلوا بواقع الحال، وقلوبهم "من الداخل تلعن اليوم الذي أضطرهم للعمل في مثل هذا الموقع"، ونتيجة لذاك فغالباً ما يغيب الإخلاص في العمل، فيوقعهم مثل هذا الواقع في محرمات أشد خطورة.

ولو توقف الأمر عند هذا الحد لقلنا أن ذلك يبقى تفاضلاً بين أبناء المسلمين أنفسهم، ولكن ما يزيد الطين بله هو ما يكون من أمرهم مقارنة بمن يحمل جواز السفر غير العربي وغير الإسلامي. فلا شك أن من يحمل الجواز السفر الغربي يتقاضى أجراً يفوق أضعاف ما يتقاضاه من وصل إلى تلك البلاد من أرض الإسلام والمسلمين لنفس العمل، فغالباً ما أبرمت العقود على جواز السفر، فلو كان المسلم يحمل جواز سفر غربي (أمريكي أو أوروبي) لتقاضى بالدولار أو اليورو أضعاف ما يتقاضاه المسلم الذي يحمل جواز سفر بلد عربي أو إسلامي بالدينار أو الريال.

وللأسف الشديد تجد من العلماء من يقوم بتبرير مثل هذا الفعل، ولسان حالهم يقول: كيف يرضى الأوروبي بالأجر الذي يرضى به المسلم أو العربي؟ إذاً لا بد من دفع الأجر حسب حالة السوق، فنرد على مثل هؤلاء العلماء بالقول: نعم هي كذلك! إنّ حاجة السوق (حسب النظرية الرأسمالية) تقدم على النص الإلهي الذي يشدد على أن المسلم هو أعلى شأناً من غير المسلم، أليس كذلك؟ ألا تتقون الله في أبنائكم ونسائكم وأنفسكم؟ أقول لمثل هذه الشرذمة من العلماء إذاً دعونا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل معاً إلى الله فنجعل لعنت الله على الكاذبين، ولننتظر لنرى من سيكون لهم الأمن وهم مهتدون.

وفي المقابل، كيف سيكون رد من رضي بهذا الأمر من أبناء المسلمين أنفسهم؟ لا شك أن ذلك معلل بدافع الحاجة، أليس كذلك؟ كلا وألف كلا. فلو أمعنا النظر في تلك العمالة لوجدنا أن معظمها هي

من الأيدي الماهرة التي كانت لها فرص لا بأس بها في بلدها، ولكنها ذهبت إلى دول الخليج بسبب المغريات (الفرق بين حالهم في مسقط رأسهم وما سيتقاضونه في بلاد الخليج)، فهل أشرف هؤلاء على الهلاك حتى اضطروا للعمل في تلك البلاد، ويقبلوا ذلك الوضع الذي يحط من قدرهم كمسلمين؟ وماذا لو تبين أن كلامنا هذا صحيح، وأنه لا يجوز للمسلم أن يرضى بأن يكون أقل شأناً من غير المسلم مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: 8]

فماذا سيكون ردهم على سؤال ربهم: لماذا رضيتم بهذا الوضع؟ ثم لنسأل الصادقين المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية: أتقبل أن ينتهك مبدأك وعقيدتك مقابل ثروة الأرض بأكملها؟ ألا ترى أنك لو تركت ذلك لله وحده، ألا تعتقد أن الله سيبدلك خيراً منه؟ إننا نؤمن أيماناً مطلقاً أن الحفاظ على مثل هذا المبدأ (أي أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين) لا يقل في أهميته عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، فهذه شعائر ديننا وذلك مبدأ من مبادئه، فكما لا نفرط بالشعائر فلا يجب أن نتنازل عن المبادئ. ثم لننظر مع المسلم العامل الذي يقبل بواقع الحال إلى الأمر من زاوية أخرى، فنقول له: إلى من ستجني تلك "الثروة"؟ لزوجتك؟ لأبنائك؟ ألا ترى أنك كلما جنيت لهم أكثر كلما زادت طلباتهم؟ هل الحصول على المال لبناء القصر، وشراء السيارات الفارهة، الخ، أهم لديك من أن تحافظ على عقيدتك ودينك؟

وسيرد البعض بالقول: هل أنا وحدي من يفعل ذلك؟ وهل سيقوم الدين كله على ظهري أنا؟ فنقول نعم، ونرد عليك بآية واحدة من كتاب الله:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: 105]

إننا نخلص إلى نتيجة واحدة مفادها أنك إذا كنت تعتقد أن هذا الوضع (العمل في دولة إسلامية بأجر أقل من الأجر الذي يتقاضاه غير المسلم لنفس العمل) يتعارض مع عقيدتك، فلا يجب أن تتمسك بهذا العمل لحظة واحدة مهما كانت المسوغات والمبررات، إن الحفاظ على دينك وإقامة مبادئه أولى من التمسك بمتاع من الدنيا زائل.

ولنتخيل الموقف على الوجه التالي: لنتصور أن الغالبية الساحقة من أبناء الإسلام رفضوا أن يكونوا أدنى من غير المسلم في المعاملة، ألا ترى أن ذلك سيردع أصحاب القرار السياسي عن انتهاك محارم الله؟! ألا ترى أن في ذلك إقامة لحدود الله؟ فهل الحد هو رجم الزناة أو جلدهم وقطع يد السارق وكفى؟ وماذا سيفعل هؤلاء بقول ربنا:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: 25]

وفي الوقت نفسه فإننا نذكر من يعتقد أن كلامنا هذا ليس أكثر من محض هراء (وهو بحق لم

يجانب الصواب) بالقول: الإخلاص الإخلاص بالعمل، أسألك الله أن تخلص في عملك وأن لا يكون ما ترى من التفاضل في المعاملة دافعاً يوقعك في محارم الله، فما دمت أنك قد رضيت ووافقت على ما أنت عليه بمحض إرادتك فعليك أن تتحمل تبعات اختيارك. فالوفاء بالعقود من أهم سمات المسلم الصادق الذي يطلب دنياه من أجل آخرته.

التجنس في بلاد الغرب

الزمان: السنة العاشرة بعد الألفين ميلادية

المكان: أرض أوروبا العظيمة (سويسرا، فرنسا، بلجيكيا، بريطانيا، ... الخ.)

الموضوع: الحجاب، بناء المآذن، الجنسية، الإرهاب، الخ.

الفتوى: يحرم التجنس بجنسية دولة غير مسلمة

لقد خرج الملايين من المسلمين قاصدين الهجرة إلى الشمال طوال القرنين الماضيين، متذرعين بأسباب متعددة، فمنهم من خرج باحثاً عن فرصة عمل، ومنهم من خرج للدراسة، ومنهم من هرب من بلاده خوفاً من النظام السياسي، وهكذا.

ونحن إذ لا ننكر صنيعهم هذا، فالله سبحانه طلب السعي في مناكبها، وأمرنا بالهجرة في أرض الله الواسعة إن اضطررنا، وقد كان صلى الله عليه وسلم على علاقة اقتصادية جيدة مع غير المسلمين وخصوصاً اليهود الذين كانوا يسكنون حول المدينة، وأمر نفراً من أتباعه بالهجرة إلى الحبشة، وهاجر هو بنفسه إلى المدينة. فالهجرة لا تتعارض مع تعاليم ديننا، بل الذي يتعارض مع ديننا –حسب فهمنا- هو دعوة بعض المفكرين والعلماء مقاطعة البضائع الأجنبية للضغط عليهم لتعديل مواقفهم السياسية تجاه هذه الأمة، فنقول أن المقاطعة الاقتصادية لم تكن في يوم من الأيام وسيلة مبررة في شريعتنا، بل العكس، فالمقاطعة الاقتصادية هي سلاحهم هم وليست سلاحنا نحن، ولنتذكر أول مقاطعة اقتصادية تعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم في مكة في شعب بني طالب، إلاّ أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستخدم المقاطعة الاقتصادية كسلاح حتى في أشد أوقات قوة الدولة الإسلامية (ناهيك عن أوقات بدايتها)، وحسب ظني لا نجد آية واحدة في كتاب الله تدعو إلى مقاطعة الكافرين اقتصادياً (وسأكون شاكراً لو أن أحداً يرشدني إلى مثل تلك الآية، فتأكد بأنني سأتخلى فوراً عن موقفي هذا)، إن جلّ ما أعرفه هو أن النبي استخدم المقاطعة مع بعض المسلمين كالذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

المهم بالموضوع أن العمل في بلاد غير بلاد المسلمين والمعاملة الاقتصادية معهم أمر مبرر ومفهوم ضمن تعاليم ديننا، وقد وجد أبناء المسلمين في غالبية تلك البلاد التي انطلقوا إليها معاملة أفضل من تلك التي يجدونها في بلدانهم الأصلية، ومع مرور الزمن انقلب هدفهم من العمل في تلك البلاد إلى التوطين والمواطنة، فأصبحوا يطالبون بالحصول على جنسية تلك البلاد التي يعيشون فيها، وهنا يظهر مشهد جديد: هل هذا أمر يتقبله ديننا؟ أيجوز للمسلم الحصول على جنسية بلد غير مسلم؟ لقد ظهر في تلك البلاد العلماء الذين انبروا لتشريع فقه جديد يعرف بفقه الجاليات المسلمة في بلاد غير مسلمة، ولكننا نقف هنا للحظة لنطرح عليهم سؤالاً واحدا: هل وجودكم كمواطنين في تلك البلاد أمر يقبله الدين؟ لا شك

أن هذا التساؤل قلما يثار هذه الأيام لأنه أصبح من قبيل المسلّمات التي لا نقاش فيها: إنّ هذا أمر لا ضير فيه.

إننا نعتقد أن وجودكم كمواطنين في تلك البلاد هو أمر يتعارض مع العقيدة، وهذا بالضبط ما سنحاول تبيانه بحول الله في هذا الجزء من الكتاب.

إننا نعتقد أن المصائب التي تنزل بالأمة هي فتنة الهدف منها تمحيص الغث من السمين، وها هم المسلمون في أوروبا وأمريكا وجميع البلاد غير المسلمة يتعرضون للفتنة، فقضية المآذن والحجاب والجنسية والمواطنة هي في مجملها اختبارات حقيقية لهذه الأمة، ونحن إذ نظن أن في هذه الأمور اختباراً للمسلمين لتمحيصهم، فإننا في الوقت نفسه نعتقد أن في مثل هذه المواقف اختبارا حقيقيا للعلماء لتصحيح العقائد التي انحرفت عن الطريق لمدة من الزمن. وبكلمات أخرى نقول إن من أهم الفوائد التي يجب على العلماء الخروج بها من جميع الفتن التي تقع على الأمة هي مراجعة فتاويهم لتصحيح عقيدتهم.

إن الوضع القائم في بلاد الغرب –كما نتصوره- هو على النحو التالي: المسلمون يلهثون (بل ويستجدون غير المسلمين) لمنحهم جواز السفر في تلك البلدان التي يقطنون فيها، أليس كذلك؟ وهنا نعود إلى نفس المبدأ الذي انطلقنا منه في الجزء السابق عند الحديث عن العمل في دول الخليج العربي، ألا وهو: هل من العزة للمسلم أن يستجدي غير المسلم لمنحه جواز سفر؟ هل يرى علماء الإسلام في هذا التصرف عزة المسلم التي قال الله فيها:

- ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139]

فأين عزة المسلم في مثل هذا التصرف؟ ولم لا يكون الأمر على عكس ما هو حاصل؟ لم لا نرى غير المسلمين يلهثون للحصول على جواز سفر بلاد الإسلام؟ فهل شاهدنا يوماً طوابير من الدنمركيين والسويسريين وحتى المجريين (الغجر منهم) يقفون طوابير أمام سفارات مصر وسوريا والأردن والصومال والسودان وحتى دول الخليج الغنية؟ لا شك أن ذلك سيسبب الضحك عند القارئ الكريم، هل من المعقول أن يقف هؤلاء عند قنصليات الصومال والسودان وجيبوتي؟! ماذا تقول يا رجل؟ هل أنت بكامل قواك العقلية؟! ربما لا، ولكن سأسألك سؤالاً واحداً: لم لا؟ لم لا يقفون؟

الجواب: لأنه ليس من قبيل العزة الحصول على جواز سفرك، لا أعتقد أن واحداً منهم يرى في ذلك مفخرة، هل تنتظر من الانجليزي أو الفرنسي أو حتى الاسباني والبرتغالي أن يتنازل؟ إن كان كذلك، فلمن العزة إذاً: لنا أم لهم؟ من الذي عطّل الآية الكريمة السابقة؟ ألسنا نحن الذين نلهث ورائهم للحصول على جنسيتهم؟ من أظهر للعالم كله أننا نحن المسلمين أبعد خلق الله عن العزة؟

ولو تفحصنا مياه البحر المتوسط لوجدناها قد ملئت بجثث أهل العزة (المسلمين) الذين يموتون غرقاً في سبيل الحصول على موطئ قدم في أوروبا، أليست تلك الجثث شاهداً على هجرتهم إلى بلاد النعيم والثراء والحرية؟ أليس من العار على علماء الإسلام أن يروا مثل هذه المناظر ولا ترتفع حناجرهم بفتوى أن العزة للمسلم ولا يجوز له أن يفرط بها مهما كان السبب؟

لا شك أنهم ربما يجدوا لهؤلاء تبريراً "لاستشهادهم"، ولكن يبقى السؤال الذي نطرحه على أنفسنا: على من نكذب نحن؟ فهل يا ترى يقبل أقل أهل الغرب قدراً ومنزلة بجواز سفر أعتى "دولنا" العظيمة"؟ كلا وألف كلا، ولكن بالمقابل، ألا يتباهى وزرائنا ومثقفونا وحتى بعض علمائنا بأنهم من حملة جواز السفر الأمريكي أو البريطاني أو الفرنسي؟ ثم، ألم يصبح من قبيل الموضة أن يحمل أهل الثراء من المسلمين نسائهم في أشهر الولادة السابع والثامن (لربما تكن ولادة مبكرة) أو التاسع لتضع منقذ المسلمين ومخلصهم في مستشفيات أمريكيا للحصول على جواز سفر لهذا الهمام القادم؟ ألا يضمن له والده بذلك مستقبله، ويؤمنه من عثرات الزمان؟ نقول لمثل هؤلاء لا نجد إلا أن نذكركم بقول الحق:

- ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥﴾ [النحل:45]

ثم لننظر إلى الأمر من الزاوية الأخرى: هل يمكن أن يكون المسلم منافقاً؟ هل يبطن المسلم ما لا يظهر؟ إننا نظن أن من أبسط مفاهيم الإسلام هو الوفاء بالعقود، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة: 1]

وقال تعالى:

- ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾ [النحل: 91]

أليس الحصول على جواز سفر هو إبرام عقد مع تلك الدولة بأن تكون مخلصاً لها؟ ماذا لو حصل أن حدث صراع بين تلك الدولة غير المسلمة ودولة مسلمة؟ هل أنت على استعداد أن تُخْلص لتلك الدولة وتسدد بندقيتك تجاه إخوانك من المسلمين؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك كما فعل بعض المسلمين المنتسبين في الجيش الأمريكي الذي غزا أفغانستان والعراق؟ إلى من سيذهب ولائك حينئذ: إلى أهل البلد الذي تحمل جواز سفره أم إلى الناس الذين تشترك معهم في العقيدة والدين؟ لا تكن منافقاً وتقسم كاذباً، إنك لن تستطيع أن تفعل ذلك.

ثم، أليس جواز السفر هو وثيقة ولاء وانتماء؟ ألا يعني حصولك على جواز السفر أنك تعلن ولائك لأهل ذاك البلد؟ وهل يجوز أن يتخذ المسلم غير المسلمين أولياء؟

- ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران: 28]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النساء:139]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة: 57]

- ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾ [المائدة: 81]

ولو دقق علماؤنا الأجلاء جيداً في قرآننا لوجدوا دليلاً قوياً بأن الولاية قد لا تكون حتى للمسلم نفسه غانيك عن غير المسلم. وكيف ذلك؟ هل هذا صحيح؟ نعم، لنقرأ الآية الكريمة التالية التي وردت في سورة الأنفال – السورة التي يعلم مضامينها علماؤنا الأجلاء – قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ [الأنفال: 72]

دقق –عزيزي القارئ- بصريح اللفظ في هذه الآية الكريمة، لمن الولاية؟ الجواب: الولاية فقط للمؤمنين الذين هاجروا، ولا تجوز الولاية حتى للمؤمنين الذين لم يهاجروا (أي الذين لا زالوا يعيشون في بلاد غير مسلمة)، نعم يجوز نصرهم لكن لا تجوز ولايتهم، وهذا فرق كبير. فكيف إذاً بولاية الكافرين الذين قال الله فيها:

- ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة: 51]

ولكن كم انبرى من علماء المسلمين للدفاع عن ولاية الكافرين متعللين بنفس العذر الذي نهانا الله أن نتعلل به:

- ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة: 52]

ولكننا لا نجد أجدى ولا أنفع من أن نذكركم بالنتيجة التي ستؤول إليها حال من يفعل ذلك في خاتمة الآية السابقة نفسها

- ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة: 52]

وفي هذا المقام فإنني أوجّه الكلام إلى غير المسلمين بالقول: لا تصدقوا من يقسم لكم بالولاء من أبناء المسلمين، لأنّ ديننا لا يقبل الولاء لغير الإسلام. ومهما حاول هؤلاء تمرير الفكرة المعاكسة فلا تصدقوهم، وأنا على يقين أنكم تعرفون أنهم لا يظهرون كل ما يبطنون، فحتى لو أسروا لكم بالمودة لكنهم لا شك يخفون شيئاً لا يعلمه إلا الله:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم

بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾ [الممتحنة: 1-2]

نعم، لا ضير أن تقبلوهم كعمالة كما تعملون أنتم في بلادنا، فأنتم لا تطلبون منا الجنسية لأنكم تحترمون أنفسكم، ومن يحترم نفسه ودينه من أبناء الإسلام لن يطلب منكم الجنسية، فإسلامنا لا يقبل بأقل من المعاملة بالمثل. نعم خيروهم بين الجنسية ودينهم: إما أن يختاروا دينهم أو أن يختاروا الجنسية، فإن رفضوا هذه المعادلة فاعلموا أنهم كاذبون مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. فها هو النص كاملاً من كتابنا:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [النساء: 141-144]

إن جل ما أطلبه من المسلمين هو قراءة الآيات القرآنية التالية من سورة المائدة ضمن هذا الإطار: ولاية المسلم لغير المسلم:

- ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨﴾ [المائدة: 51-58]

ولكن الذي يندى له الجبين ويخجل منه كل لبيب هو خطاب علمائنا الأجلاء على المنابر في مثل هذه المواقف، في تلك البلاد وفي بلاد الإسلام.

أما بالنسبة لخطاب علماء المسلمين في تلك البلاد التي يعيشون فيها فإننا نجد لزاماً أن نذكرهم بالقول:ألم تتغنوا بالأمس بديمقراطية فرنسا وسويسرا؟ ألم تتفجر حناجركم بالخير الذي تمخضت عنه تلك الديمقراطية من رفاهية في كل مجالات الحياة؟ ألم تنتقدوا بلاد الإسلام بالتخلف لأنها لا تتخذ من الديمقراطية طريقاً للنجاة؟ ما لكم لا ترضون اليوم بما تمخضت عنه نتائج الاستفتاء في سويسرا أو قرارات مجلس الأمة الفرنسي؟ أليست تلك هي أدوات الديمقراطية؟

إنكم ببساطة –يا سادة – لا تفهمون معنى الديمقراطية، هل تقبلوا بنتائج الديمقراطية إن كانت تنصفكم وترفضونها إن هي لم تأتي بالخير الوفير لكم؟ إنكم لا تختلفون بتفكيركم هذا عن تفكير أي حاكم عربي لا تتمخض صناديق الاقتراع له بأقل من 90% في أسوأ الأحوال وأشدها جفافاً. هل من المنطق أن نقبل ببعض الكتاب ونكفر ببعضه؟! هذه هي نتائج الديمقراطية التي تؤمنون بها أنتم، ومن المنطق والحق أن تقبلوا بما تتمخض عنه ما دامت هي في نظركم –كما كانت على الدوام- وسيلة الخلاص وقارب النجاة. أما لمن يظن أن الدين هو الحق، فإننا نفهم بأن رأي الأغلبية (أي الديمقراطية) لم تكن في يوم من الأيام الأسلوب الأمثل لاتخاذ القرار في ديننا، ولعلي أجد لزاماً أن أذكركم أنه في اليوم الذي قرر المسلمون الاحتكام إلى رأي الأغلبية كانت الهزيمة هي حليفهم، ولا أجد كثير عناء أن أذكركم بقصة معركة أحد.

أما في بلاد الإسلام: ففي الجمعة الماضية كان موضوع الخطاب الحماسي الذي أثار مشاعر المئات في مسجد قريتنا الصغير عن خطر ازدياد المسيحيين في دول الخليج، "فها هو الخطر داهم، لقد أصبحت بلادنا محطاً ومرتعاً خصباً لهم ولإرسالياتهم التبشيرية، وها هي كنائسهم تنتشر، و... و...، الخ."، كانت هذه بعض العبارات التي استخدمها الخطيب على المنبر إن لم تكن بالحرفية ف بفحوى الفكرة التي استطعت أن أخرج منها بعد جهد في متابعة الموضوع، وقد ألهب خبر وجود مسيحي أو يهودي في مجلس الأمة البحريني حدة النقاش، فأصبح خبراً تتناقله كل الفضائيات العربية والأجنبية وموضوع للخطابة عن الخطر الداهم من الغرب على هذه الأمة، فخرج المصلون يسبون ويشتمون حكامنا على الخنوع والتساهل مع هؤلاء ومن يروّج لهم في بلادنا، وعلى مثل هذا الشعور انقضت تلك الجمعة.

في الجمعة التالية جاء موضوع الاستفتاء السويسري على بناء المآذن، فجلب في ثناياه موضوع الحجاب في فرنسا وإحراق المصحف في الدنمرك والفلم المسيء للنبي في هولندا وهكذا، وكانت خطبة ذاك الخطيب المفوّه تركز على موضوع عدم التسامح عند الغرب تجاه المسلمين المتواجدين بينهم، فكان مما قال (حسب فهمي المتواضع بالطبع): تلك أمة لا تقبل الآخر ولا تفهم معنى التعايش والمشاركة، إنهم يكرهوننا ولا يمكن أن يقبلوا بنا، فمهما حاولنا أن نكون مسالمين فهم يكنون لنا العداء والبغضاء، وقد جلب عشرات الآيات والأحاديث التي تتحدث عن بغضهم لنا.

فثارت حفيظة الناس، وخرجوا من المسجد في ذلك اليوم يكيلوا للنصارى واليهود بأشد عبارات الشتم، ولم يكن بوسعهم أكثر من أن يرفعوا أيديهم وتعلوا حناجرهم بالدعاء والتضرع إلى الله أن يأخذهم (أي اليهود والنصارى) أخذ عزيز مقتدر بسبب كرههم للإسلام والمسلمين.

أما أنا فقد كنت طوال تلك الخطبة أود البكاء (وما كان يمنعني سوى أن يظن الناس أن بكائي هو على حالة المسلمين في أوروبا، أو أن يسيء البعض الظن بي فيعتقدوا أن بكائي كان بسبب الإيمان والخشوع

الزائد في قلبي –كخشوع تجارنا الذين يلبسون الدشداش والطاقية الأبيضين كبياض الحمامة في يوم الجمعة – يوم عطلتهم- بعد أن كانوا قد أكلوا الربا أضعاف مضاعفة طوال أيام الأسبوع الستة الباقية)، كلا، لقد كان بكائي على أن هؤلاء هم علماء الأمة الذين يصعدوا منابرها وينبروا للدفاع عنها، أقسم بالله العظيم أن معاداة عاقل خير من مودة أحمق.

يا الله كنيسة في بلد عربي في الجمعة السابقة خطر يداهم الأمة الإسلامية بأكملها، أما مئات المساجد في أوروبا وخمسة ملايين مسلم في فرنسا وحدها لا يشكل خطراً على تلك الأمم؟ أنت أقمت الدنيا –يا سيدي- ولم تقعدها في الجمعة الماضية عن خطر تواجدهم في بلادنا (حتى وهم لم يطلبوا جواز السفر العربي العظيم)، أما هم فلا يحق لهم أن يعبروا عن غضبهم لتواجدك في بلادهم كمواطنين يتمتعون بكامل حقوق المواطنة، ما هذا المنطق؟ أين ذهبت عقول الناس؟ ألا يجدر بالمسلم أن يكون منصفاً حتى ولو كان ذا قربى؟ لماذا يرتفع صوتنا بخطر نائب في البرلمان من أصحاب الديانات الأخرى ولا يشكل انتخاب عشرات البرلمانيين المسلمين في دولة واحدة من دولهم خطراً على تلك الأمة؟ لماذا يشكل وجود وزير واحد من أصحاب الديانات الأخرى في حكومة مسلمة خطر الحروب الصليبية القادم من الغرب ولا يشكل تنافس المسلمين على رئاسة الدولة في بلدانهم خطراً عليهم؟ فكم من المسلمين (وغير المسلمين) يظنون أن باراك أوباما نفسه من المسلمين؟ أليس والده مسلم؟ أليست جدته مسلمة؟ ألم ينشأ في صغره في بلد مسلم؟ لم لا يشكل ذلك خطراً عليهم؟

إن عدم الإنصاف وغياب العدل يفقد الناس نعمة الإبصار، قال تعالى:

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]

كان الأولى بخطيبنا المفوّه أن تصدع حنجرته بعدل الإسلام وقبول مبدأ المساواة في المعاملة، فكما لا نقبلهم عندنا كمواطنين، فالأولى بنا أن لا نقبل نحن أن نكون عندهم مواطنين، وكما نقبلهم عندنا عمالة فقط فلا يحق لنا أن نطالبهم بأكثر من العمالة، فهي علاقة الند بالند.

أما إذا أردت أن يكون الكون كله لك، لا تريدهم أنت في بلادك وتطالبهم أن يقبلوك دون شرط ولا قيد في بلادهم، فهذا أسخف ما يكون، إنه الظلم بعينه (وربما فيه البغي)، فيا أخي الخطيب: هل تريد أن يكون كل سكان الأرض مسلمين مثلك؟ إن مشيئة الله لم تقض بذلك، فهل تريد أن تعارض مشيئة الله؟ قال تعالى:

- ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: 35]

هل تريد أن يكون الناس على وجه الأرض كلهم أمة واحدة؟ لقد قضت مشيئة الله بخلاف ذلك:

- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ

أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَٰتِۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: 48]

- ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: 93]
- ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى: 8]

أم تريدهم أن لا يكون مشركين؟ فمشيئة الله لم تقض بذلك:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُواۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: 107]

فهل تريد أن تتحدى مشيئة الله؟

إن المطلوب من المسلم هو العدل ولا أقل من العدل، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: 8]

وتأكد –عزيزي القارئ- أن كلامي هذا كله مدفوع بقوله تعالى:

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواۚ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: 135]

كان الأولى بمن يرى في حظر الحجاب في فرنسا خطراً على إسلامه أن يهاجر منها، فلم هاجرت من بلدك العربي إلى أوروبا مدفوعاً بحاجة دنيوية؟ لم لا تقوم بالهجرة المعاكسة لغرض رباني؟ لم فررت من نظامك السياسي يوم ظننت أنه قد قهرك؟ لم لا تهرب من النظام السياسي الذي لا شك سيقهرك؟ هل تعتقد أنك ستخرج منتصراً في هذا الصراع في أوروبا؟ أذكرك يا عزيزي أنك مخطئ، فتلك أمم يعرفون كيف سيتخلصون منك ومن أمثالك، ليس بصراخ خطيبنا على المنبر وإنما بالقانون وفي ساحات المحاكم. تلك أمة تدرك ما تفعل وتخطط لما تعمل، ولن يكون صراخك أكثر من زبد يذهب جفاءً. وسأذكرك بعد 300 سنة أن ابنك الذي هو من صلبك سيكون من أشد المطالبين بالتخلص من الحجاب في تلك البلاد، فكم من أبناء المسلمين يتخذوا مواقف مؤيدة لفكر أهل تلك البلاد.

ثم ألم يكن ألأجدى بخطيبنا المفوّه أن يطالب حكامه بمبدأ المعاملة بالمثل؟ فلو كنت يا أخي من المنصفين (ومن غير الجاهلين) لكان خطابك على النحو التالي: المطالبة بالمعاملة بالمثل، فكما يسن البرلمان الفرنسي قانوناً يحظر الحجاب في بلدهم، فادعوا برلمان دولتك –يا رحمك الله- أن يسن التشريعات

التي تمنع السفور؟ وكما يصوت الشعب السويسري على حظر المآذن فاطلب من حكومة قوية بنيت على مبادئ راسخة كحكومة السيد سمير الرفاعي العتيدة أن تجري الاستفتاء على أجراس الكنائس؟ ثم انظر عندها كيف ستكون ردة الفعل، وكيف سيقف العالم بأكمله إجلالاً لك وتوقيرا.
ثم، يا سيدي الكريم، من الذي نبه الغرب إلى حظر الحجاب؟ ألم يحظر الحجاب في تركيا وتونس قبل أن يحظر في فرنسا؟ ألم يمنع ذكر الله في مساجد بلاد الإسلام كلها قبل أن يمنع في سويسرا؟

أقول لمثل هؤلاء الخطباء، والله إنكم لستم أكثر من دمى متحركة في يد حكامكم، وهم المستفيد الأول والأخير من أمثالكم، لتشتموا فرنسا ما شئتم، ولتسبوا الدنمرك وسويسرا كما يحلو ويطيب لكم، فتلك البلاد لا تمنع الشتم حتى وأنت في أراضيها غانيك عن شتمها من وراء البحار، ولكن هل تجرؤ على أن تنبت ببنت شفة بخصوص الهدية التي قدمتها زوجة مدير الأحوال المدنية أو الجمارك أو حتى الجامعة في بلدك الكريم إلى صاحبتها في مناسبة رأس السنة الميلادية؟
ربما: من يدري!

حكومة سمير لا قمحة ولا شعير

أما المثال الذي سنسوقه لبيان حجتنا بأن الفتوى الدينية تفقد قيمتها وتأثيرها في الناس عندما تعلّق بظروف الحال (لنقض المبادئ الدينية التي نصت عليها شريعتنا) فهو مثال حكومة السيد سمير الرفاعي الأردنية

المكان: مجلس النواب الأردني

الزمان: كانون الأول من السنة العاشرة بعد الألف الثاني الميلادي

الموضوع: الحصول على ثقة مجلس النواب الأردني

المشكلة: فتوى جماعة الإخوان المسلمين بخصوص مشاركة الجيش الأردني في قوات حفظ السلام الدولية

نقول إلى كل المشاركين في النقاش الدائر حول الموضوع بأننا لا نرضى منذ البداية بأقل من أن ندعو أبناءنا وأبناءكم وأزواجنا وأزواجكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين. فلقد منيت هذه الأمة بمصيبة عظيمة وهي أن أبناءها يبطنون ما لا يظهرون، إنه انفصام الشخصية، العيش بشخصيتين اثنتين، واحدة على الملأ والأخرى مع نفسك (وربما مع فئة قليلة جداً ممن تثق أنهم لا يمكن أن يشوا بك- ربما أمك وبناتك، ولا أظن أني أقبل الرهان على الزوجة والأبناء)، وهذا الانفصام هو ما يشبه مبدأ التقيّة عند بعض فرق المسلمين. فالغالبية الساحقة من أبناء المسلمين (وخصوصاً أهل السنة والجماعة) ينتقدون مبدأ التقيّة الذي خرجت به بعض فرق الشيعة، ولكن من المحزن أنهم لا ينتقدون هذا المبدأ إلا إن تعلق الأمر بتلك الطائفة، في حين أنهم يمارسون التقيّة صباح مساء، ولا أقصد هنا العامة من الناس بل أهل العلم والنخبة منهم. فهل يا ترى يمكن للمسلم أن يخفي ما لا يظهر، ويقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يقول، فلقد ذم الله بأشد عبارات الهجاء من يقول ما لا يفعل:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف: 2-3]

فلقد شرّع بعض علماء المسلمين مثل هذه التقية بحجة ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران: 28-29]

فنقول لمثل هؤلاء العلماء دعنا نوافقكم الرأي للحظة، ولكن هل الحديث هنا عن العلاقة بين المسلمين أنفسهم؟ فهل يعود الضمير في قوله تعالى **إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** على المؤمنين؟ الجواب النفي قطعاً، ومما لا شك فيه أن التقيّة لا تجوز بين المسلمين المؤمنين، وقد أجازها الله مع الكافرين في حالات محددة، لذا فإنني أود أن أستطرد قليلاً فأتوجه بالكلام إلى غير المسلمين –عطفاً على ما سبق في الموضوع السابق- بالقول: أنه إذا وجدتم المسلمين يوالونكم فلا تصدقوهم فذاك من باب التقيّة وهي إظهار ما لا يخفون في صدورهم، وأنا على يقين أن أشد الموالين للكفار من أبناء الإسلام لا يوالي الكفار إلا لحاجة في نفس يعقوب قضاها، ولكن ليعلم أن فوق كل ذي علم عليم، وأن الله سيفضح أمره لا محالة، فالله سبحانه لم يتقبل من نبيه الكريم نفسه أن يخفي شيئاً في نفسه، فعاتبه بالقول:

- ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾ [الأحزاب: 37]

فالعلاقة بين المسلمين يجب أن تكون مبنية على الصدق والنصح، فلا يجب أن يبطن المسلم لأخيه المسلم (حاكماً كان أو محكوما) ما لا يخفيه في نفسه، ولعلي أجزم بأن هذا السلوك ليس فقط سلوك العامة بل هو سلوك كثير من العلماء، فكم من العلماء يتحدث بما لا تطمئن له نفسه، والسبب هو (حسب ظنهم) ليتقوا منهم تقاة. وأكثر ما يتكرر هذا السلوك في علاقة العالِم بالحاكم، فكم من العلماء لا يرتفع صوته إلاّ بما يرضى به الحاكم حتى وإن خالف عقيدته، ومنهجه وأدواته في ذلك التبرير (أو بكلمات أدق إلباس الحق بالباطل).

فها هم ثلة من الآخرين يصوّرون للحاكم أن البلاد هي جنة الله على الأرض لا فيها نصب ولا مخمصة، وطريقه وطريقهم إلى الجنة ليست سوى مسألة وقت (هذا إن كان هناك حاجة لاستئذان خازنها)، فما عمل الحاكم في أرض الله ليس له جزاءً إلا الفردوس الأعلى من الجنة، وفي الوقت الذي ترتفع حناجرهم بهذا الكلام ترى إمارات التكذيب بادية في نبراتهم وحركاتهم، ولو خلوت به (ولو خلا هو بنفسه) لعزا كل الهوان والضعف الذي تمر به الأمة إلى حكّامها. ولو حصل وسألته سؤالاً واحداً: لماذا إذاً لا تصرّح فعلاً بما تؤمن به؟ لجاء جوابه على الفور وبكأنه يقول: أتريدني أن أهلك؟!

لا يا عزيزي لا نريدك أن تهلك، ولكنّا نطلب منك شيئاً واحداً وهو أن تتفرغ لأحكام الحيض والنفاس، فمثل هذه القضايا لا يقدر عليها كل العلماء، فاعرف وزنك ولا تهلك نفسك وتهلك الآخرين معك في الدنيا والآخرة، فتبوء بإثمك وإثمهم، ونحن نقول لمثل هؤلاء العلماء إن لم يكن هناك بد، فكن ممن يكتمون الحق (أي اسكت يرحمك الله) ولا تكن ممن يلبسون الحق بالباطل.

أليس من واجبنا النصح للمسلمين حكاماً ومحكومين؟ فلم إذاً نكذب عليهم؟ صحيح أن أذن الحاكم تستهوي الكذب، ولكن ذلك لن ينفعك في يوم الحساب الأكبر الذي تحذّر الناس منه في كل فرصة تتاح لك، ولنذكرك بقول الله:

- ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ٦٨﴾ [الأحزاب: 66-68]

ما يهمنا في هذا النقاش هو شيء واحد ألا وهو: كيف تفقد فتاوى العلماء قيمتها يوم تتقلب حسب الحالة، وسنحاول أن نبين كيف يكون العلماء هم الظالمون يوم أن يستخدموا فتاويهم الدينية لخدمة مصالح غير دينية، مدفوعة بظروف الحال (الزمان والمكان) مهما كانت الأهداف والنوايا، فنحن نفهم أن شريعتنا لا تبرر الوسيلة حتى وإن كانت الغاية سليمة.

المثال:

لقد احتدم النقاش في مجلس الأمة الأردني في مناقشات نيل الثقة على حكومة السيد سمير الرفاعي حول ما صدر من فتوى لجماعة الإخوان المسلمون فيما يتعلق بمشاركة القوات المسلحة الأردنية في قوات حفظ السلام الدولية، ولكن لكي نفهم حيثيات الفتوى خصوصاً للقارئ غير الأردني فلا بد من البدء ببعض الحقائق التي لا يمكن إلا أن يقر بها الجميع.

- ⇐ أولاً، بدأت مشاركة القوات المسلحة الأردنية في قوات حفظ السلام قبل سنين عديدة
- ⇐ ثانياً، خرج الآلاف من أبناء المسلمين المنتسبين للقوات المسلحة الأردنية في تلك القوات
- ⇐ ثالثاً، تقاضى هؤلاء الجنود أجراً على ذلك العمل
- ⇐ رابعاً: حدث أن خرج بعضهم أكثر من مرة
- ⇐ خامساً، ذهب بعضهم إلى دول إسلامية كأفغانستان والعراق وذهب آخرون إلى دول غير إسلامية كـ هايتي، في حين ذهب طرف ثالث إلى دول نصف إسلامية كـ ساحل العاج
- ⇐ سادساً، قضى ثلة من أولئك الجنود نحبهم في تلك البلاد فأقيمت لهم مراسم تشيع جثمان الشهيد يوم أن عاد ملفوفاً بعلم بلاده التي ظن أنه جندي محارب في سبيلها.
- ⇐ سابعاً، استخدم أولئك الناس تلك الأموال التي كسبوها في إطعام أبنائهم وتعليمهم وفي بناء بيوتهم وتزويج بناتهم، وأدّخر آخرون بعض تلك الأموال لتنفيذ جزء من وصيته تخص شراء الأكفان له من تلك الأموال التي ظن أنه كسبها بعرق جبينه يوم وفاته.
- ⇐ ثامناً: لم يصدق نفر غير قليل من الأردنيين أن الفاكهة واللحوم يمكن أن تتواجد في البيت على مدى يومين متتاليين إلا بعد أن عاد من يكسب لهم قوتهم (عامود البيت باللسان الأردني المجازي)

من قوات حفظ السلام، ولا يمكن أن يصدق نفر آخر أن هناك فرصة لهم ليأكلوا اللحوم أو الفاكهة (أو حتى البندورة- الطماطم الأردنية الشهيرة) إلا بواحدة من اثنتين: (1) رحيل حكومة سمير الرفاعي إلى غير رجعة بإذن الله أو (2) التحاق معيلهم بقوات حفظ السلام حتى وإن كان ذلك للمحافظة على استقلال جنوب السودان بعد إجراء الاستفتاء العظيم عليه في مطلع عام 2011.

النتيجة بناء على فتوى الإخوان والأخوات المسلمين والمسلمات: كل ذلك المال الذي كسبه حرام، وذلك الجهد الذي بذله ليس في سبيل الله ولا حتى في سبيل بلده، ومن مات منهم في تلك الديار هو أبعد ما يكون عن الشهادة.

المطلوب من الشعب الأردني: التصفيق لشجاعة الإخوان المسلمين في قول الحق.

تكبير: الله أكبر الله أكبر الله أكبر

ولكن يبقى سؤال بسيط يخالج بال من يصعب عليه ربط الأحداث مع بعضها البعض من أمثالي وأخي المسلم الذي لم يبقى سوى أن يقبّل يد ضابطه المسئول عنه أن لا يبعثه إلى أفغانستان أو العراق أو هايتي وساحل العاج منذ سنين طويلة، سؤال مفاده: أين كانت فتواكم هذه قبل سنين؟ أم هل كان الدين آنذاك في إجازة؟ لربما نزل عليكم طارق من السماء الآن يخبركم بهذه الفتوى العظيمة!
لا يا سادة: فتواكم -لا شك عندنا- صحيحة، ولكن هدفكم ووسيلتكم غير نبيلة، ولن يكون لها أثر على الناس، وأنتم تتحملون جزءاً من الوزر أمام الله على خيانتكم للأمة. لقد كان الأجدر بكم أن تجتمعوا منذ اليوم الأول لقرار الحكومة بالمشاركة في قوات حفظ السلام قبل سنين وأن ترتفع حناجركم بذلك منذ البداية ليهلك من هلك عن بينة وليحيا من حيّ عن بينة، ولا يجوز لكم أن تستخدموا فتواكم كسوط ضد الحكومة، تطلقوه متى شئتم وكيفما أردتم، لقد تلاعبتم بكلام الله ليخدم أغراضكم الدنيوية ، لقد بررت غايتكم وسيلتكم غير النظيفة.

أقسم بالله العظيم أني من أشد الكارهين لحكومة السيد سمير الرفاعي (فأنا أعتقد أن ذلك الرجل لا يصلح أن يكون حارس مزرعة والده غانيك أن يكون حارساً ومؤتمنا على الوطن بأكمله)، وأظن في الوقت ذاته أن البلد قد أحسن صنعاً عندما منح هذا الرجل وأمثاله وظيفة مع زملائه من الوزراء وإلاّ لكان جلهم ممن يتقاضون من صندوق المعونة الوطنية، فمن الأفضل أن يحصل هؤلاء وأمثالهم ممن لا يملكون حرفة تعينهم على كسب قوتهم على معاشاتهم من وزارة المالية بدلاً من أن يأخذوها من وزارة التنمية الاجتماعية.
وأقول لشخص مثل الأستاذ الدكتور الذي يقف على يمين السيد رئيس الوزراء أقول: هل لو كان ذلك الشخص (أقصد رئيس الوزراء- سيدك ومعلمك) في واحدة من دروس اللغة العربية التي كنت تدرّسها أقول هل كان سينجح في ذلك المساق حتى لو كان من مستوى مساقات 100 في جامعتك العتيدة؟ الجواب لا أظن (وبالمناسبة لم أكن سأنجح أنا في ذلك المساق – فعربيتي ليست بأحسن حالاً)، ولكن لله الحمد، هذه هي النتيجة الحتمية لمجازاتك اللغوية التي قضيت عمرك فيها، فعليك أن تكمل ما تبقى لك من عمرك رحلة المجاز والتحريف حقيقية على أرض الواقع.

المهم، أقول أقسم بالله أني من أشد المنكرين لتلك الحكومة، ولكني أصبحت أشد إنكاراً لفعلة

الإخوان المسلمين لأني أعلم أن الوزارة بطاقمها لم تدّعي يوماً بأنهم ممن لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها أو أعين يبصرون بها، ولكني أخشى أن تكونوا أنتم قد وصلتم إلى درجة بل أضل سبيلا، فلقد خالفت الحكومة أمراً دنيوياً عن علم فأصبحوا ظالمين لما يخص أمر دنياهم، ولكنكم أنتم كتمتم علماً أخروياً (عن علم) فأصبحتم ظالمين لما يخص دنياكم وأخراكم.

يعلم القاصي والداني أنكم لم تشاركوا في مجلس النواب، وأخطأتم الظن حين حسبتم أن الأمة بأكملها ستخرج إلى الشوارع بدافع فتواكم تلك، فماذا كانت النتيجة؟ لقد استهزئ الجميع بتلك الفتوى – حتى وإن كانت حسب ظني هي الحق بعينه- وفقدت تلك الفتوى قيمتها وتأثيرها على الناس، وحصل السيد سمير الرفاعي على 111 صوتاً يوم الاقتراع على الثقة بحكومته، ربما لا لشيء وإنما ليثبت من أعطاه الثقة عدم ثقته بكم، لقد أفدتم الرجل من حيث لا يعلم، والسبب في ذلك ربما لأن فتواكم لم تكن خالصة لله، لقد سلطتم الدين على رقاب العباد كعقاب لهم، ولم تستخدموا الدين لينير درب العباد، وشتان بين هذا وذاك.

متى يا ترى ستخرج فتواكم بحرمة مجلس الأمة والانتخابات برمتها؟ ربما بعد مشاركتهم العشرين بعد المئة. لم لا تخرج فتواكم منذ اليوم الأول؟ هل يختلف الدين بين اليوم والأمس؟ هل ما كان حلالا في الأمس يصبح حراماً اليوم؟ وما هو حرام اليوم يصبح حلالا في الغد؟ إذا كان الدين على هذه الشاكلة فلا نستغرب ولا يجب أن نستنكر أنه لن يكون له تأثير يذكر في حياة الناس. ولا نستغرب أن الله قد نزع من قلوب الناس المهابة منكم ومن فتواكم، فلم يعد لكم تأثير يذكر في حياة الناس، ولعلنا نجزم أن عالماً واحداً يزرع الله له مهابة في قلوب الناس بحجم علماء الأمة بأكملهم، وأن عالماً واحد ربما يقض مضاجع الحكام أكثر من جيوش مدججة بالسلاح (هذه صورة مستقاة من مسرحية شكسبير ريتشارد الثالث – مش شطارة من عندي في صنع المجازات)، ولا أشك أن علمائنا لا يعرفون السبب: إنه الفتوى الخالصة لوجه الله المجردة عن المنافع والحسابات.

إن أقل ما يتوقع الشعب الأردني من جماعة الإخوان المسلمين هو الاعتذار على ما اقترفوه بحقهم من ذنب طوال تلك الفترة التي بقيت الحبال الصوتية في حناجرهم لا تهتز لتصدع بقول الحق، فلو كان في الأمة كلها شخص واحد على استعداد أن يقف عند محارم الله ولكنكم لم تنقذوه من الوقوع فيها لتحملتم أنتم (كما يتحمل علماء المسلمين بأسرهم) وزر ذلك الرجل.

وفي المقابل، لم تكن ردة الفعل من قبل الحكومة أقل جهلاً ولا أقل مكراً. فقد نصّبوا من أنفسهم العلماء المدافعين عن الدين فأصدروا الفتاوى المضادة لفتوى الإخوان المسلمين، فوقعوا وأوقعوا الناس في بلبلة كان الخروج منها ميسراً وسهلاً، ولا يتطلب العناء الكبير، ولكن ربما كان هذا ممكناً لو كان بينهم صاحب لب، ألم يسألوا أنفسهم كيف سيصدق جزء كبير من الشعب فتوى الحكومة وهم من هم؟ هل أصبح فلان وفلان من المنظرين بالفتوى الدينية (والله إن حالكم ليس بأحسن من حالي، فها أنا وأنتم نخرّص ولكن انتبهوا وليكن كل منا جاهزاً ليتحمل تبعات ما يخرص به أمام الله أولاً وأمام الناس بعد ذلك).
نقول لو كان في الحكومة ذو لب لكانت ردة الفعل هي الترويج لفتوى الإخوان المسلمين، لم لا؟ هل الحكومة الأردنية نصبت من نفسها يوما أنها تقيم الشريعة وتحمي حدود الدين؟ أقول لو فعلت الحكومة ذلك لكفاها، فما المتوقع أن تحدثه فتوى الإخوان المسلمين تلك في الناس؟ ولنعقد مقارنة بسيطة، هل

أثرت مثلاً فتوى حرمة التعامل مع البنوك الربوية في الناس؟ لعل الجميع يعرف أن كل علمائنا الأجلاء (حتى مقدمي البرنامج الصباحي والمسائي يسعد دينك) يحرمون التعامل مع البنوك الربوية، أليس كذلك؟ ولكن هل قللت تلك الفتوى من زبائن تلك البنوك؟ الجواب: كلا وألف كلا، ليس لشيء سوى لأنها فتوى صدرت من علماء لم يرعوا حق الله في العباد، ما الذي تغير على فكر "البنك العربي"- مثلاً- حتى يصبح البنك العربي حرام أما البنك العربي الإسلامي على الطرف المقابل من الشارع نفسه حلال؟ أليست تلك هي النتيجة الطبيعية لفتواهم: وأحل الله البيع وحرم الربا؟ فعلى يمين الشارع هذا حلال، وأما الذي على يسار الشارع فهذا من أصحاب الشمال؟ (وأنا بالتأكيد لا أميّز اليمين من الشمال، أهي يمين الصاعد أم شمال النازل؟) كيف سيثق الناس بفتواهم وهم يركبون السيارات التي موّلتها برامج التقسيط من البنوك الإسلامية، أما نظرائهم على الطريق فسياراتهم مقسّطة على برامج البنوك الربوية، وهم الذين يخطبون على المنابر بنا في كل جمعة وحتى في دواوين العزاء (وربما صالات الأفراح هذه الأيام) أن نتقي الشبهات.

أقول كان يكفي الحكومة أن تعلن فتوى الأخوان المسلمين وأن لا تصدر فتوى ضدها، ثم تجعل المشاركة بين أفراد الجيش اختياريه، فهل يا ترى سيعير الجيش بالاً لفتوى الإخوان؟ أنا على يقين أن الغالبية الساحقة لن تعيرها انتباهاً كما فعل غالبية الناس بخصوص فتوى البنوك الربوية. وحتى تحبط الحكومة تلك الفتوى كان يكفيها أن تزيد مكافأة المشاركين 500 أو 1000 دينار، أو حتى أن تعد المشارك برتبة عسكرية إضافية، ثم لينظروا كيف سيزيد الطلب والإلحاح على المشاركة، فالتلويح بمبلغ من المال سيذهب بتلك الفتوى في مهب الريح، ألا نذكر كيف سال لعاب العلماء أنفسهم على مبلغ من المال فعملوا مستشارين للشركات الربوية ليحلوا لهم الحرام؟ فهل غابت عن أذهاننا فتاوى العلماء التي أحلت البورصة الأردنية التي نهبت جيوب الناس وأوقعت الاقتصاد كله في كارثة لن يتعافى معها إلا بزوال تلك الفئة من العلماء؟

وأخيراً، ألم يكن الأجدر بعلمائنا أن يتصدوا بكل ما أُتوا من قوة لحكومة السيد سمير الرفاعي بدلاً من التلاعب بفتوى الدين؟ لم لا يذكّروا السيد سمير الرفاعي بالتاريخ وبما تركه أسلافهم من إرث تاريخي؟ لم لا يذكّروا السيد سمير بما قاله أجدادهم بعد طول التجربة والخبرة بأن "حكومة سمير لا قمحة ولا شعير".

في المثل الأردني الفلاحي الدارج: إذا كان الحكّي مجنون يكون المستمع عاقل، ولكن ما الذي يحصل عندما يكون الطرفان مجانين؟ الجواب: حوار الطرشان.

الخاتمة

يا علماء المسلمين من أقصى الأرض إلى أقصاها: اتقوا الله في العباد، ولتنتبهوا لأهمية الفتوى التي تصدرونها، إننا أمة نؤمن بكل ما جاء بكتاب ربنا، فنحن أمة نختلف عن كل أمم الأرض، إن الفتوى الدينية هي المسيرة لحياة الناس فلا تستهينوا بها ولا تجعلوها عرضة للأهواء والأحوال، ولا تستغلوها لتنفيذ مآربكم ومقاصد حكامكم، إن ذلك لن ينفعكم في الدنيا وسيكون وبالاً عليكم في الآخرة. إننا أمة لن يعيدنا إلى جادة الصواب إلا الفتوى لأننا نعلم أن المتمسك بهذا الدنيا لا يقبل إلا بها، فهو قد قرأ في كتابنا العزيز قول ربنا سبحانه:

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ٣٦﴾ [الأحزاب: 36]

فالانتخابات وصناديق الاقتراع لا تأخذ بالمسلمين إلى جادة الصواب، فهذه ليست أدواتهم ولا أساليبهم التي يتقنوها، فتلك هي أساليب الأمم الأخرى وهي الأمهر في تنفيذها والتحاكم إليها، لقد نشبت مشكلة في صناديق الاقتراع عام ألفين بين جورج بوش الابن ومنافسه آل غور على رئاسة البيت الأبيض وسيادة العالم، ولكن هل سمعنا أن أمريكيين اثنين تشاجرا نتيجة ذلك الخلاف؟ كم مرة أجريت الانتخابات في كل أوروبا والأمريكيتين وحتى في الهند، لكن هل سمعنا أنهم قد صفّوا الخلاف بينهم بالدماء أو حتى بالتشاجر؟

ولكن بالمقابل، كم من الرؤوس طاحت على الأرض وكم من الدماء سالت في الشوارع على انتخابات العمدة في كفر الدوار أو الانتخابات البلدية في معان والطفيلة؟ وها هم طلبة من الجامعة الأردنية العتيدة (دار المعرفة والتنوير) ينقلوا بالعشرات إلى المستشفيات بعد إعلان نتائج انتخابات جمعيات طلابية؟ هل هذا ما كسبوه من المعرفة والعلم في رحاب هذا الصرح العلمي الشامخ؟ ألم يسأل علماؤنا أنفسهم عن السبب؟ إننا نظن أن هذه الأمة لا يمكن أن تتقن لعبة صناديق الاقتراع، فهي إما أن تزورها (وأعوذ بالله من شر نفسي والتهمة التي ألقيها على أكتاف حكامنا المعصومين) أو أن يكذبوا بعضهم البعض بنزاهتها (وأعوذ بالله من شر نفسي والتهمة التي ألقيها على أكتاف وزراء داخليتنا المبجلين) أو أن يطيح بعضهم برؤوس بعض (وأعوذ بالله من شر نفسي ومن التهمة التي ألقيها على أكتاف شعبنا الأبي).

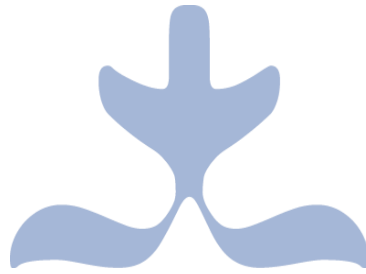
قال تعالى:

- ﴿... وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]
- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك: 10]

فصدق بهم قول الحق سبحانه:

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ١٧٧﴾ [الأعراف: 176-177]

دعاء: اللهم إنا ندع أبناءنا وأزواجنا وأنفسنا ونبتهل إليك فاجعل لعنتك على الكاذبين.



والعلماء هم الظالمون

الجزء الثاني



الجزء الثاني: والعلماء هم الظالمون

لقد زعمنا في الجزء السابق أن العلماء هم من أهم أسباب وقوع الظلم على الناس، لذا فقد ذهبنا إلى القول أن العلماء كانوا على الدوام سبب بلاء هذه الأمة كما كانوا سببه الأول والأخير عند الأمم الأخرى، وقدمنا عدة أمثلة على وقوع الظلم بين الناس بسبب فتوى شرذمة من الناس يسمون أنفسهم (ويظن السواد الأعظم من الأمة أنهم) علماء هذه الأمة، والأمثلة التي قدمناها في مقالتنا السابقة هي:

1. حرب الخليج
2. العمل في دول الخليج العربي
3. جواز السفر الغربي
4. حكومة سمير لا قمحة ولا شعير

أما في هذا الجزء فسنقدم مثالاً جديداً من واقع ما حصل لهذه الأمة مع بداية هذا العام 2011، ونخص بالذكر ما حصل من تحولات جذرية في السياسة تمثلت بسقوط فراعنة وأكاسرة وقياصرة هذه الأمة عن عروشها، وما رافقها من فتوى دينية أحلت تارة وحرمت تارة أخرى، فأوقعت الناس في حيرة. والفتاوى التي سنتناولها في هذا الجزء هي

1. فتوى الشيخ القرضاوي
2. فتوى الحبيب الجفري
3. فتوى شيخ الأزهر
4. فتوى مجمع كبار علماء "السعودية"

فتوى الشيخ القرضاوي

قال تعالى:

- ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة: 42]

إننا نزعم أن هذا الشيخ هو من الذين "يكتمون الحق وهم يعلمون"، وسنقدم الدليل على هذا الزعم.

في مقابلة على قناة الجزيرة في برنامج "الشريعة والحياة" في واحدة من أيام أحاد هذه السنة المباركة بحول الله وتوفيقه، خرج الشيخ القرضاوي يزأر كالأسد (بعد سقوط زين العابدين بن على عن سدة الحكم في تونس) أقول خرج يزأر بكل عبارات الشتم على هذه الطاغية الذي ظلم العباد ونهب البلاد، وأثنى على الثورة التونسية وما أنجزته في هذه الفترة الوجيزة، وقد خرج بعد ذلك عدة مرات يثني ويشجع المصريين والليبيين على الاستمرار في الثورة ضد الطغاة لإسقاط أنظمة الحكم تلك، ولا شك أن الشيخ القرضاوي كان يتحدث بصفته كرئيس لمجمع علماء المسلمين.

ما أود أن أقوله هو لا بارك الله بذاك الشيخ، ولا بارك الله بذاك المجمع الذي يمثله إن كان الدين هو على تلك الشاكلة التي يقدمونه للناس، أما عن سبب هذا الموقف فأنا أعتقد أن هذا الشيخ ومن يمثّلهم هو ممن يكتمون الحق، ويتصيدون الفرص لاغتنام المكاسب، لذا يجب على الأمة أن تحذر من فتواهم، وأن لا تأخذ بها إطلاقاً، وهذا ما سنبينه في هذا الجزء.
لقد نبع هذا الموقف من مشاهدتين رئيسيتين تتعقلان بموقف هذا الرجل:

⇐ **أولا**، أن الكلام المباشر الصريح ضد طاغية من حكام المسلمين لم يخرج من هذا الشيخ وأمثاله إلا بعد نجاح الثورة التونسية، ولم تكن فتواهم هي المحرك الذي دفع الناس للخروج إلى الشارع والتظاهر، فما سمعنا فتوى لهذا الشيخ ومن يمثلهم (ممن يسمون أنفسهم بالعلماء) إلا بعد سقوط الطاغية، فخرجت ألسنتهم من حناجرهم تكيل لتلك الجثث الهامدة كل عبارات التجريح والشتم، وما أظن ذلك إلا لجني ثمار تلك الثورات، واللحاق بركب الشعوب مخافة أن يبقوا في المؤخرة، وقد كان لهم ما أرادوا، فذهب شيخنا ليكون خطيب وإمام صلاة الجمعة بعد نجاح الثورة المصرية، أليس كذلك؟ ولكن ربما يبادرنا البعض بالقول بأن هذا هو موقف معظم علماء المسلمين وليس القرضاوي فقط من فعل مثل تلك الفعلة، فما الضير في ذلك؟ فنقول نعم هو كذلك، وما كنت سأهاجم موقف الشيخ لو أنه توقف عند هذا الحد، فأنا أعلم بالقطيعة بين الشيخ والنظام المصري التي استمرت سنوات عديدة، ولا شك فإن الشيخ قد تحمل تبعات موقفه ذاك، وأسأل الله له الأجر على ذلك، ولكن المشكلة عند هذا الشيخ (ومن دار في فلكه) تجلت أكثر في المشاهدة الثانية التالية، وهي التي قللت من رصيد هذا الشيخ عند نفر من أبناء المسلمين.

⇐ **ثانياً**، أنا أتحدى أن يخرج هذا الشيخ وأمثاله بفتوى وجوب الثورة على من تبقى من أولئك الزعماء العرب الذين لا يزالون يظلمون العباد وينهبون البلاد، بل على العكس، ففي نفس المقابلة السابقة الذكر مع ذاك الشيخ على قناة الجزيرة عندما كان يزأر كالأسد (فالأسود لا تقترب إلا من الجيف) على بن علي بعد سقوطه، بادره مقدم برنامج الجزيرة بسؤال مفاجئ عن موقفه بخصوص قيام السعودية بإيواء بن علي عندما رفضه أشد حلفاءه قرباً له وهم الأوربيون والفرنسيون على وجه التحديد، فما كان من ذلك الشيخ إلا أن هبط صوته بشكل ملفت للنظر، وأخذ يتنصل ويراوغ في الإجابة قائلاً "لكنه في السعودية كأنه سجين (قاصداً بن علي)"، ونحن نثير هنا عدة تساؤلات منها: لم لم يصدر الشيخ الجليل الفتوى التي يعتقد أنها الحق بحرمة إيواء بن علي في أرض الحجاز (لا بل وفي بلاد الإسلام والمسلمين كلها)؟ فهل يجوز - يا شيخنا الجليل- أن يحتمي من قاتل الإسلام وقهر المسلمين عقوداً من الزمن في أشد بلاد الإسلام قداسة؟ لم لم تصدر فتواك بأن من يحترم نفسه ويحترم شعبه (ويحترم حتى حيوانات مزرعته)، لا يمكن أن يقبل إيواء مثل ذاك الطاغية ناهيك أن يكون ذلك في أرض الحجاز (أرض الإسلام والمسلمين)؟

ثم لنسألك –يا أيها العلامة كما يعرف بك مقدم برنامجك المفضل على قناة الجزيرة- السؤال الأكبر وهو: لم لا تصدر فتواك بخصوص "دول الخليج" ونظام الحكم والقهر فيها كما أصدرتها بحق تونس ومصر وليبيا؟ ولم لا تصدر فتواك تلك بحق سوريا والأردن والعراق والسودان والمغرب وقطر وعمان؟ ولم لا نسمع منك الدعم للمحتجين في البحرين كما فعلت في الحالة التونسية والمصرية والليبية؟ هل لا زلت تنتظر حتى تبدأ الثورة في "السعودية" مثلاً وتأتيك الأخبار بحتمية نجاحها حتى تصدر فتواك؟ هل هذا هو الدين حقاً وهذه هي الفتوى الدينية؟ أم هل لا زلت بعد هذا العمر لا تستطيع إلا أن تغازل آل ... وآل ...

وآل ... الخ؟ هل لا زالوا أولياء نعمتك والمغدقين عليك من أموال المسلمين المنهوبة؟! أم أنكم ما انفككتم تظنون أن الفتاوى الدينية كنطفكم لا بد أن تتخيروا لها؟!

ألم يكن الأجدر بك أن تقول لكل من يؤوي ذاك الطاغية فلتهنأ به حتى يأتي دوركم؟ ألم يكن الأجدر بك أن تشد من عزم أهل أرض الجزيرة العربية وأرض الشام والرافدين كما فعلت في أرض الكنانة وتونس الخضراء وأرض أحفاد المختار لينتفضوا هم ضد طغاتهم الذين قهروهم ونهبوا ثرواتهم كما انتفض غيرهم؟ ألم يكن الأجدر بك أن تحذر من يؤوي هذا الطاغية (وأمثاله من شرذمة الحكام الذين تهاوت عروشهم والذين ستتهاوى عروشهم بحول الله وتوفيقه) أن في صنيعهم هذا ازدراء وتحقير لمشاعر شعوبهم ومشاعر الشعوب العربية والإسلامية كلها يوم أن قبلوا أن تدوس أقدامه تلك الأرض الطيبة؟

إننا نعتقد أن المشايخ أصحاب العمامات البيضاء والسوداء (على حد سواء) الذين يسكتون عن قول الحق مخافة أن يغضبوا أولياء نعمتهم لا يختلفوا في مواقفهم هذه كثيراً عن السياسيين الانتهازيين الذين يقضوا جل أوقاتهم خارج البلاد، ولا يعودون إليها إلا بعد نجاح ثورات شعوبها ليقطفوا هم ثمارها ومكاسبها، أقول لو كانت شعوبنا على درجة كافية من الوعي ما قبلت هؤلاء في صفوفها، وما قدمتهم إلى الصف الأول ليقودوا الناس بعد كل تلك الدماء التي سالت.

إنني لا أقبل من هذا الشيخ وأمثاله بأقل من أن يخرج بفتوى وجوب الجهاد ضد حكام العرب من المحيط إلى الخليج دون استثناء (هذا إن كان يؤمن أن من واجب المسلمين أن يثوروا على ظلم حكامهم في تونس ومصر وليبيا)، أم هل لازال الشيخ يتخيّر الفتوى ليسلطها على رقاب البعض دون البعض الآخر؟ فلا أظن أن إنساناً سوياً يعتقد أن الظلم الذي حصل في تونس ومصر وليبيا أقل من الظلم الذي لا زال يحصل في سوريا والأردن والعراق والسعودية وقطر وعمان واليمن والإمارات والمغرب والجزائر وموريتانيا والسودان والصومال. وهل أعتقد - يا شيخنا الجليل- أن أرصدة زين العابدين وحسني والقذافي في الخارج بأكثر من أرصدة من لازال قابعاً على كرسيه ولم تطح به رياح الثورات بعد. أم هل تظن أن ليلى الطرابلسي وسوزان مبارك قد أنفقن من أموال الشعوب على دور الأزياء والحلي والمجوهرات بأكثر مما تنفق زوجات من تبقى منهم؟ وهل تظن يا شيخنا الجليل أن أقرباء وأنسباء الرئيس وزوجاتهم في تونس ومصر وليبيا بأكثر من أقرباء وأنسباء أصحاب الفخامة والسمو والجلالة في البلاد التي لم تتقد الثورات فيها بعد؟ فأين فتواك فيمن تبقى؟ أم أن الفتوى للأموات فقط؟

أتق الله يا شيخنا في الأمة، وقل كلمة الحق شاء من شاء وغضب من غضب، ولا تكن ممن يعلمون الحق ويكتمونه، ولو نطقت أنت (وأمثالك ممن يتصدون للفتوى) كلمة الحق في كل حين، لما وصلت هذه الأمة إلى الحضيض، وبقيت في ذيل القافلة مئات السنين، ولما استبد هؤلاء الشرذمة من الحكام الذين امتطوا ظهوركم ليحكموا الناس بالحديد والنار والفتوى الكاذبة.

(المجد والخلود لـ بوعزيزي، والخزي والعار لحكام العرب وعلماء السلاطين)

فتوى الحبيب الجفري

قال تعالى:

- ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: 42]

إننا نعتقد أن هذا الشيخ قد ألبس الحق بالباطل، وسنحاول تقديم الدليل على هذا الزعم

أجرت قناة تلفزيونية مصرية موالية لحسني مبارك في منتصف الثورة المصرية اتصالا هاتفياً بالداعية اليمنية الحبيب الجفري ليبدي رأيه فيما يخص الثورة المصرية، فكان ذلك الشيخ أكثر دهاء ومراوغة من الشيخ القرضاوي، فراوغ في الكلام حتى قلب الأبيض إلى أسود والأسود إلى أبيض، وانتهى في كلامه إلى وجوب الكف عن التظاهر، والمقصد الشرعي لديه هو حقن دماء الناس. وذهب إلى مقارنة ما يحدث في مصر في تلك اللحظة مع ما يمكن أن يحدث في اليمن (وقد كانت المظاهرات اليمنية لا زالت في بدايتها)، وانتهى إلى القول أن اليمن شعب مسلح ويمكن أن يتسبب ذلك في حرب أهلية طاحنة، لذا من الحكمة (حكمته هو بالطبع) التعقل والكف عن التظاهر والخروج إلى الشارع.

نعم يا شيخنا الجليل، إنّ من الحكمة أن تتعقل الشعوب، ولكن لدي سؤال بسيط جداً، أليس من الحكمة أن تتعقل الأنظمة أيضاً؟ ثم أليس من الحكمة أن نطلب الحكمة من أهل الحكمة أصلاً؟ أليس حكام العرب هم أحكم الناس وأعقلهم؟ أليس كل واحد منهم هو الحاكم الملهم الذي لا يخطئ؟ لم إذاً لم توجه كلامك إلى أولئك الحكماء أن يتعقلوا هم ويتنازلوا عن الكراسي التي التصقت بقفاهم عقوداً من الزمن؟ هل من الحكمة أن تطلب الحكمة من أهل الجهالة كهؤلاء الجياع الذين خرجوا إلى الشوارع بحثاً عن رغيف الخبز في مكبات الزبالة؟ ألم تخطب علينا يا شيخنا عن ذاك الصحابي الذي قال "عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج شاهراً سيفه"؟ أم أن ذلك كلام يخص الزمن الغابر، ومن غير الحكمة أن نتمثله نحن في زمننا؟ أليس من الحكمة أن تقول لجميع حكام العرب (من قضى نحبه منهم ومن ينتظر) كفاكم ما نهبتم من أموال العرب وأودعتموها في بنوك وبورصات الغرب؟ أليس من الحكمة أن تقول لهم كفاكم ما أنفقتم أنتم وأبناءكم (وحتى كلابكم) من أموال الضعفاء والمساكين على دور الملاهي والقمار في فينا ولاس فيقس، الخ؟ هل تتوقع بمن لا يجد وظيفة مدى عشرين سنة أن يسكت عندما يسمع عن المليارات التي ستجمدها بريطانيا وفرنسا وأمريكيا وغيرها من دول الكفر والإلحاد لهؤلاء الشرذمة من الحكام الفاسدين الذين لم يرقبوا في مؤمن إلاًّ ولا ذمة؟

(المجد والخلود لـ بوعزيزي والخزي والعار لحكام العرب وعلماء السلاطين)

فتوى شيخ الأزهر

لا شك أن الأزهر وأمثاله من دور العلم الإسلامي لم يعد في زمن هؤلاء السلاطين وعلمائهم أكثر من أراجوز، كل شيء فيه ممكن إلا العلم، سمّيه ما شئت: دار أمن دولة، دار سياسة، دار لهو، الخ، لكن لا تسميه دار علم. فهو أبعد ما يكون عن العلم كمؤسسة دولة، فالعلم الذي فيه هو في خدمة السلطان وزبانيته وحتى عشيقاته، ولكنه لا يخدم الإسلام ولا المسلمين، فها هو شيخ الأزهر كشخص والأزهر الشريف كمؤسسة لا يتردد في الوقوف في صف الرئيس ويتحدى مشاعر المصريين كلهم والعرب والمسلمين من ورائهم، والهدف هو إرضاء الرئيس حتى لو كلف ذلك غضب كل المسلمين على وجه البسيطة.

لا شك أن تلك هي الفتوى الدينية التي ترضى الرئيس حتى ولو كان ذلك على حساب رب الرئيس، فالرئيس في الديانة الفرعونية هو ابن الآلهة، والأزهر الشريف ليس أكثر من معبد للإله وأبن الإله، فطاعة أبن الإله مرضاة للرب نفسه. ولكن يا ترى: هل ثبت شيخ الأزهر على موقفه هذا الذي نبع في الأصل من عقيدته الدينية؟ أم هل تتغير عقيدته الدينية بتغيير الرئيس؟ وأخشى ما أخشاه أن يكون هو وأمثاله يظنون

أن الحكمة هي ما فعله أسلافهم، فأنزل الله قرآناً يتلى بحقهم في قوله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: 141]

المحزن (ولكن ليس غريبا على أمثال هؤلاء المتسلقين المنتفعين) في الأمر أن شيخ الأزهر لم يلتزم بمبدئه الديني الذي شرعه عن علم لحظة واحدة بعد أن سقط ابن الآلهة، فركض يبحث له عن ابن آلهة جديد حتى لا تفوته الغنائم، وليكون في خدمة سيده الجديد، فعقد مؤتمره الصحفي ليتبرأ من فتواه السابقة بخصوص مولاه وولي نعمته السابق (حسني المخلوع)، ولم يجد بدّاً (كما فعل غيره) من التعذر بالحكمة لتبرير تلك الفتوى السابقة وذلك الموقف، فالحكمة ومقاصد الشريعة لا تفوت مثل هؤلاء العلماء (الكبار في أعين الجهّال، الصغار في عين رب الناس)، فقد كان قلب شيخ الأزهر ينفطر للدم المصري الذي كان يسيل، وقد لحن في القول كما فعل القرضاوي والجفري من قبل، ولكن أود يا شيخي الجليل أن أسألك سؤالاً بسيطاً: لم لم يرتفع صوتك وينفطر قلبك على الدم المصري الذي سال تحت الأرض في أقبية السجون والتعذيب سنين كثيرة؟ لم لم ينفطر قلبك على المال المصري الذي سال أغزر من جريان النيل في بنوك فرنسا وسويسرا ونيويورك ولندن؟ لم لم ينفطر قلبك على ملايين المصريين الذين تشردوا في كل المعمورة بحثاً عن لقمة العيش التي لم يجدوها في مصر، مصر الحضارة، مصر التاريخ، ومصر الزراعة؟ ألم تقرأ في كتابك الذي حولته إلى قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً منها أن الله طلب من بني إسرائيل أن يهبطوا مصراً ليبحثوا عن البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل؟ كيف تحولت مصر الزراعة والخصب بشهادة رب العباد إلى مصر الجوع والمرض والجفاف؟ الجواب (حسب ظني) هو: لقد حصل كل ذلك يوم كان ابن إلهك (حسني المخلوع) هو حاكمها وأنت سادن معبدها (الأزهر).

(المجد والخلود لـ بوعزيزي والخزي والعار لحكام العرب وعلماء السلاطين)

(**ملاحظة مهمة جداً جداً**: إنني أتقدم بطلب إلى النائب العام المصري بإلقاء القبض على شيخ الأزهر والبابا شنودة بتهمة التواطؤ مع النظام السابق والتآمر على إفشال الثورة المصرية المجيدة)

فتوى كبار علماء "السعودية"

الناس يسموهم كبار علماء السعودية، وأنا أزعم أن الصفة الحقيقية التي تميزهم هي "كبار ... السعودية"

الزمان: 7/3/ 2011

المكان: شاشة الجزيرة

الخبر: "كبار علماء السعودية يحرّمون المظاهرات"

في صباح ذلك اليوم، وعندما كنا نبحث عن خبر ربما يفرّج الصدر ويفرح القلب في الأزمة الليبية التي انطلقت شرارتها للتخلص من طاغية أخرى من طغاة هذا الزمان، وقد كانت أخبار حمام الدم الذي يسيل في ليبيا تتشقق لها الحجارة، وما هي إلا لحظات حتى قرأت ذلك الخبر الصاعق وهو يظهر على الشريط الإخباري على شاشة قناة الجزيرة، وقد كان مفاد الخبر هو: تحريم الخروج في مظاهرات، وقد كان هذا الخبر صادرا عن ما يسمى "بهيئة كبار علماء السعودية"

السؤال: ماذا تتوقع أن تكون ردة فعل كل مسلم في كل مكان على مثل هذه الفتوى؟

الجواب حسب منطق "هيئة كبار العلماء": هذا هو الدين رضي من رضي وغضب من غضب، أليس كذلك؟

"يا شباب ليبيا، يا ثوار ليبيا، يا جرحى ليبيا، يا قتلى ليبيا" اسمعوا فتوى كبار علماء السعودية: ما تفعلونه حرام. ما تفعلونه حرام، ما تفعلونه حرام. فالقذافي من ورائكم ونار جهنم من أمامكم، ولكم الخيار. إما أن ترضوا بالقذافي في الدنيا أو أن رب "كبار علماء السعودية" سيدخلكم النار بعد أن يذبحكم القذافي ذبح النعاج.

يا كل شعوب العرب التي تحررت والتي لم تتحرر بعد، المعادلة حسب رأي "كبار علماء السعودية" هي: أن ترضوا بحكامكم أو أن الله سيسكنكم في صقر، وما أدراك ما صقر، لا تبقي ولا تذر، ولكم الخيار.

المحزن (وليس الغريب على مثل هذه الشرذمة من المنتفعين) أن تلك الفتوى قد خرجت من "علماء السعودية وهاجسهم الأكبر ليس ليبيا أو تونس أو مصر أو الأردن أو اليمن (هذا وقد بارك بعضهم الثورات في تلك البلاد إن لم يكن في العلن فبينه وبين ضميره الذي رضي أن يريحه من عناء العمل بعض الوقت)، وإنما دول الخليج وخصوصاً السعودية نفسها، فالمعادلة حسب تلك الفتوى تكون لأهل تلك الديار على النحو التالي: إما أن ترضى أن يحكمك آل ... و آل... و آل... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أو أن يدخلك الله أشد العذاب (ربما مع آل فرعون: النار يعرضون عليها غدواً وعشياً). عليكم إذاً أن تحسموا أمركم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة.

نقول لهذه الشرذمة من العلماء إذا كان هذا هو الدين فعلاً، فـ والله الذي لا إله سواه لا نريده، وإن كان هذا هو حكم الرب الذي تقصدونه فوربي إنه ليس بربي. فلكم دينكم ولي دين. هل هي سنة الله في الأرض أن يكون آل ... هم خلفاء الله وساسة الناس على الأرض؟ هل هي سنة الله أن يبقى الناس عبيد لهم لا حق لهم سوى أن يأكلوا ويشربوا كالدواب؟

أم حسبتم أنه إن أغناكم الله بحفنة من الدراهم والدنانير، أصبحتم تملكون الحق أن تفتوا حسب مصالحكم ومنافعكم؟ أم حسبتم أن سكنكم في تلك الديار يعطيكم الحق أن تتلاعبوا بهذا الدين كيفما شئتم ورغبتم؟

إننا نرد عليكم بالقول: إن هذا الدين هو أشرف وأجل وأكبر من أمثالكم وأمثال حكامكم، إن هذا الدين هو أعظم من أن يخاط على مقاس أسيادكم وأولياء نعمتكم، إن هذا الدين هو الدين الحق الذي جاء به محمد بن عبدالله للبشرية كافة، ولا يستطيع بشر أن يحتكره لنفسه، وإذا أردتم أن تتحدثوا عن أنفسكم، فلتكن فتواكم على النحو التالي: (تحريم المظاهرات في السعودية أو في البحرين أو في أي مكان تمثلونه)، وإياكم أن تطلقوا فتاوى تخص غيركم، فنحن نعلم أن الله لا محالة سيخزي في الدنيا من يسخّر الدين في خدمة ميول وشهوات الحاكم، ولا شك أن الله سيحاسب كل على مواقفه يوم القيامة. وأنا شخصياً على استعداد أن

أقف أما الله في يوم القيامة ليسأل كل منا عن موقفه هذا، وليكن كل منا مستعد لذاك اللقاء ، فوالله الذي لا إله سواه إني لأراه الآن وكأني فيه. أما في هذه الدنيا فإننا لا نرضى أن يكون الحكم بيننا غير قول الحق:

- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران: 61]

ولا شك أنكم ستردون عليّ بالقول كفى هذا الرجل ما يقوم به من شتم وسب وألفاظ بذيئة، وأنتم لا شك أجل من أن تردوا على رجل أخلاقه هذه، فأنتم أهل حكمة وعقلانية (والمحزن أن يقتنع الكثيرون من المغفلين من أبناء المسلمين بحجتكم هذه)، ولكني سأذكركم بآية واحدة في كتاب الله هي التي دفعتني لأشتمكم، واشتم كل من يسلك طريقكم ممن يسمون أنفسهم بعلماء المسلمين، قال تعالى:

- ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝١٤٨﴾ [النساء: 148]

نعم، هي رخصة من الله أن نجهر بالسوء متى شعرنا بالظلم، وأنا أدعو كل من شعر بالظلم من أبناء المسلمين أن يتمثل قول الحق، وأن يجهر بالسوء، فالله سبحانه قد لعن وشتم من ظلم، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩﴾ [البقرة: 159]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٤٧﴾ [النساء: 47]
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [الأعراف: 44]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود: 18]

وعندما تمادى بعضهم في غيّه وظلمه وتسبب بالأذى للمسلمين أنزل الله في حقه قرآناً يتلى فيه أقسى عبارات الشتم والتقريع، قال تعالى:

- ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: 10-13]

فلربما ظن هؤلاء الشرذمة والصعاليك ممن يسمون أنفسهم بالعلماء أننا نظلمهم عندما نشتمهم، ولكني أسأل كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد: ألم يظلم هؤلاء الشرذمة من "علماء السلاطين" الآلاف من أبناء المسلمين الذين سالت دمائهم يوم خرجوا يدافعون عن حقوقهم وأعراضهم وأوطانهم في وجه من سرقوهم من أمثال زين العابدين وحسني والقذافي؟ ثم ألم يظلم هؤلاء الشرذمة من العلماء الآلاف

الذين ستسيل دمائهم يوم يخرجوا لنفس الغرض ضد كل الطغاة الذين ما كانوا يوماً عبيداً لله كما كانوا عبيداً لكراسيهم التي لن يتنازلوا عنها ولو كلف ذلك أن تجري الدماء أغزر من جريان الأنهار؟ فأي شيء أكبر ظلماً من أن ترموا الناس (بفتواكم) بالنار وهم قد خرجوا ليضحوا بأنفسهم وأبنائهم وأموالهم ليدافعوا عن أنفسهم وعن أبناء جلدتهم الذين آثروا أن يختبئوا وراء فتوى زائفة؟ ألم يخرجوا هؤلاء مضحّين بأرواحهم وشعارهم الأكبر "ليموت من مات عن بينة وليحيي من حي عن بينة"؟

ثم، ألا ترون -يا سادة - ما فعلت وما ستفعل فتواكم تلك بالأمة التي لازال السواد الأعظم من أبناءها لا يعرفون القراءة والكتابة بفضل انجاز قياداتنا الربانية الملهمة والمؤيدة بتأييد السماء بفضل فتاويكم الجاهزة؟! إننا نشهد النقاش الآن دائر بين أفراد العائلة الواحدة، فأصبح البعض منهم يظنون أن الحق فيما تذهبون إليه، في حين اشتد حنق وسخط الفريق الآخر، وهم المستعدون للتضحية بأنفسهم في سبيل إنقاذ بلادهم، ألا ترون –يا سادة – أن فتواكم هذه قد أشعلت فتنة، لا شك ستستعّر نارها يوم تداهمكم تلك الثورات في عقر داركم؟ وأي شيء أكبر من الفتنة التي وصفها ربنا في كتابه الكريم أنها أكبر من القتل؟ ألم يكن الأولى بكم أن تغلقوا أفواهكم وتسكتوا حناجركم بدلاً من إشعال فتيل فتنة ربما تطحن بالأمة عشرات السنين؟ أما في واقع الحال فإن الخانع الجبان سيتسلح بفتواكم ليهرب وينجو بروحه، ولكن الشجاع المقدام فسيضرب بفتواكم عرض الحائط، وسيقدم الغالي والنفيس ليكسب حريته وحرية أمثالكم الذين يفضلون حياة الرق والعبودية.

والأهم من ذلك كله، ألم تخطبوا علينا قصصاً من سالف الزمان على المنابر (وحتى في فضائياتكم التي تتكسبون منها باسم الدين كما يتكسب أصحاب فضائيات الدعارة باسم الحب والفلانتاين)، أقول ألم تخطبوا فوق رؤوسنا أن أعظم الجهاد في سبيل الله هي كلمة حق عند سلطان جائر؟ وأي جور – أستحلفكم بالله يا سادة- أعظم من جور من يحكموكم ويحكموننا؟ وأي جهاد أعظم من أن تقول لهؤلاء اللصوص أنكم سرقتم مقدرات الأمة وتركتموها في ذيل القافلة بالرغم من المقدرات والثروات الهائلة التي تتوافر في بلاد الإسلام والمسلمين؟ هل أفلحت مليارات الخليج في أن ترفع تصنيفكم من دول العالم الثالث إلى دول العالم الثاني ناهيك أن تكونوا من دول العالم الأول؟ هل مثال ماليزيا وتركيا ليخفى عليكم؟ هل استطعتم أن تجاروا حتى جارتكم وعدوتكم اللدود إيران؟

أم أن ذلك جهاد في الزمن الغابر، أما في زمن حكامكم وأولياء نعمكم يصبح خروجاً على ولي الأمر، لا يعدو أكثر من انتحارا، النار يوم القيامة نصيب من يشارك فيه؟ كم تغنيتم على المنابر وفي الفضائيات بشجاعة النفر الأول من أبناء المسلمين في قول الحق؟ ولكن - يا سادة- هل الشجاعة أن تقف صارخاً في وجه أبي بكر أو عمر أو عثمان كما فعل بعض رعيتهم؟ هل الشجاعة أن ينبري شخص من بين المصلين ليسأل عمر عن ثوبه الطويل؟ هل الشجاعة أن تقف امرأة لترد عمر عن قراره بتثبيت المهور؟ كلا، والله ليست تلك هي الشجاعة، لأن من يصرخ في وجه عمر يعرف أن عمر لن يظلمه، ولن يرميه في غياهب السجون تحت الأرض عشرات السنين دون محاكمة، ولن ينهال عليه حراس عمر بالعصي والبنادق والدبابات والطائرات وراجمات الصواريخ، ولن يبيد عمر القرية أو المدينة التي خرج منها ذاك المعارض، ولن يقضي على عشيرته التي أنجبته، فعمر يخاف الله ولا يظلم الناس، ولكن الشجاعة (كل الشجاعة) والجهاد الأعظم (الذي قصده النبي صلى الله عليه وسلم) هو أن تصرخ في وجه الحاكم الظالم من أمثال هذه الشرذمة من حكام العرب، لأن من يصرخ في وجههم يعرف أنهم لم ولا ولن يرعوا في مؤمن إلاّ ولا ذمة،

وهم لم يتواروا عن قتل الناس في العلن ناهيك عن السر، ومن يصرخ في وجههم يفعل ذلك وهو يعلم أن أكفانه قد خيطت، فلا يفعل ذلك إلا بعد أن يودع أهله وأحبته تاركاً وصيته في فراشه الذي نهض منه في ذاك اليوم، فتلك هي الشجاعة، وتلك هي كلمة الحق، وهؤلاء هم السلاطين الظلمة. نعم إن من يتجرأ ويصرخ في وجه هؤلاء الطغاة هو أكثر شجاعة وأعظم أجراً من الذي صرخ في وجه عمر بن الخطاب، ذلك الدرس الذي أهلكتمونا بكثرة ترداده، فأين هو اليوم من فتواكم؟

لربما لا يحتاج الأمر إلى عظيم دهاء وحنكة ليعرف القاصي والداني أن الغرض من فتواكم تلك هو صد الخطر الشيعي الذي يتهددكم في عقر داركم، فالأمر في البحرين أقلقكم أكثر من التغير الذي حصل في مصر، والخطر أعظم عندما يقوم الشيعة في المنطقة الشرقية من دياركم بمثل تلك المظاهرات التي ستداهمكم في بيوتكم، فذاك بالنسبة لكم خطر عظيم. أليست تلك هي الفزاعة التي تلهبون بها مشاعر المغفلين ممن يستمعون لكم ويظنون صدق نواياكم؟

لا أود أن أجادل في من أضعف العراق ومنح إيران شرق البلاد بأكملها على طبق من ذهب، ولا أريد أن أجادل كيف قلبت فتواكم بين ليلة وضحاها اسم المقاتلين في أفغانستان من مجاهدين تتحقق على أيديهم المعجزات التي لم تكن تحصل إلا في زمن النبوة إلى إرهابيين مفسدين في الأرض، ولا أريد أن أتحدث عن من كان يدعم جون قرنق بكل المال والسلاح لإضعاف الدولة التي فكرت يوماً أن ترفع شعار الإسلام حتى اسميا، ولا أريد أن أتحدث عن من تآمر على الثورة الجزائرية التي خرجت باسم الإسلام، فكل ذلك سيتكفل الزمن بفضحه وتبيانه للبسطاء الذين لا يستطيعون أن يفكروا بأكثر من لقمة عيشهم، وسيعلم الناس ولو بعد حين من هي العائلة الحاكمة التي تتكسب باسم الدين وتحارب من يحاول حتى أن ينافسها في ذلك الإرث التاريخي الذي جعلوه بفضل فتواكم حقاً خالصاً لا ينازعهم عليه أحد، أقول لن أتحدث عن ذلك كله، ولكني سأخاطب المسلم البسيط (وأقصد هنا أهل السنة على وجه التحديد) بالسؤال التالي: ألا تتضايق عندما تسمع عن سوء معاملة النظام الشيعي في إيران لـ أهل السنة هناك؟ هل يرضيك أن يقع على أهل السنة في إيران السوء والظلم من النظام الشيعي الحاكم هناك؟ الجواب النفي قطعاً، فإن كان كذلك، ألم تقرأ قول الحق:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: 8]

أليس العدل هو أقرب للتقوى؟ هل كرهك لنفر من الناس يدعوك أن تظلمهم؟

لقد كان الأولى بهذه الشرذمة من العلماء أن يدعوا إلى العدل، فذاك من أبجديات من يعتبر نفسه مسلماً، إن صد الخطر الشيعي (كما تصورونه) لا يكون –يا سادة – بمحاولة إيقافه ومحاربته بكل ما أوتيتم من مال وقوة وعلم وجهل، ولكن بالعدل ولا شيء غير العدل، فالعدل أساس الملك، فمتى حصل العدل، أمن الناس على حياتهم وأعراضهم وأموالهم، ولكن متى عمّ الظلم وانتشر، بات الناس في قلق وخوف كالذي أحسستم به ودفعكم لإطلاق فتواكم المشينة تلك.

(المجد والخلود لـ بوعزيزي والخزي والعار لحكام العرب وعلماء السلاطين)

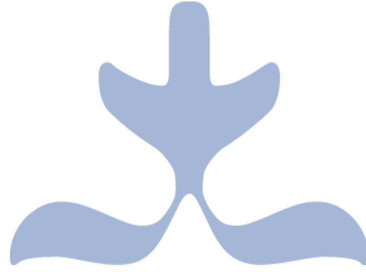
وفي الخاتمة أتوجه إلى عامة المسلمين بالخطاب التالي: ألا ترون أن العلماء قد اختلفوا في أمر هذه الحركات الشعبية؟ ففي حين أن بعض السادة العلماء يرون أن الخروج والمشاركة في هذه الثورات للتخلص من الطواغيت هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، ولا يعتبر ذلك خروجاً على ولي الأمر (كما يفعل القرضاوي)، يرى فريق آخر من العلماء أن هذا ليس من باب المندوب أو حتى الحسن بل هو الشر بعينه (كما فعل كبار... السعودية)، لأن فيه خروج على أمر الحاكم الملهم المؤيد من السماء، وإثارة للفتنة التي تدعو الحكمة إلى وأدها في مهدها. والحال هذه، ألا ترون أن العلماء بحاجة إذاً أن يفضوا الخلاف بينهم قبل أن يوقعوا الناس في دنسهم؟ هذا هو –عزيزي القارئ- ما قصدناه وما نقصده على الدوام في مقالاتنا التي تندرج تحت عنوان "والعلماء هم الظالمون"، إنهم من يعرفون الحق ولكنهم إما أن يلبسوا الحق بالباطل أو أنهم يكتمون الحق، وهو بالضبط ما نفهم من النهي الإلهي الذي ورد في قوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة: 42]

والمحزن أن يظن البعض أن ذاك من باب اختلاف الرأي، ويكأن لسان حالهم يقول أنّ في اختلاف العلماء رحمة للأمة. كلا وألف كلا، أقول يا سادة إن هذا الظن هو المهزلة بعينها، وهو الذي قضى على الدين في مهده الأول، وهي الشعار الزائف (بل الأكذوبة) التي تم من خلالها تسويق وتمرير مئات بل الآلاف الأكاذيب على البسطاء من أبناء المسلمين، فحتى يتم لكل من يسمي نفسه عالما تسويق فكره (حتى وإن كان منحرفاً كـ فكري هذا مثلاً) كان لا بد أن يتسلح بهذه الفرضية الخاطئة، ونحن نظن أنها خاطئة لأننا نؤمن أن ليس لله طريقان، فالسبيل إلى الله هي سبيل واحدة، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: 108]

فابحث – رحمك الله- عن تلك السبيل، ولا توقع نفسك في شرك هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بالعلماء، وما هم بأكثر من مرتزقة، يميلون حيث يميل هوى السلطان فينفذون له نزعاته وشهواته تحت غطاء الدين.



والعلماء هم الظالمون

الجزء الثالث



الجزء الثالث: والعلماء هم الظالمون

كان جلّ الاهتمام في الجزء السابق ينصبّ على أهمية الفتوى الدينية في توجيه مسيرة حياة الناس إلى جادة الصواب، وهي حق العامة على الخاصة، والعلماء لا شك هم من يتحمل تبعات الفتوى التي يسوّقونها للعامة على أنها مشتقة من أصول الدين. وقد خلصنا في مقالاتنا السابقة من الأمثلة التي قدّمناها أن المشكلة تكمن في الفتاوى المتضاربة التي غالباً ما تبهم ولا تجلّي الحقيقة، فيبيت حتى الحليم حيرانا، وقد خلصنا في نهاية مقالتنا السابقة إلى القول أنه من الخطأ –حسب رأينا- أن يظن البعض أن في عدم خروج العلماء بفتوى موحدة تبيّن للناس الحق من الباطل ربما يقع في باب اختلاف الرأي، ويكأن لسان حالهم يقول أنّ في اختلاف العلماء رحمة للأمة. ولقد رفضنا جملة وتفصيلاً مثل هذا الظن، وزعمنا أن هذا الاختلاف كان ولا زال من أهم الأسباب التي أبعدت الناس عن قبول الدين في حياتهم العملية، وقد كان هذا الشعار على الدوام هو الشعار الزائف (بل الأكذوبة) التي تم من خلالها تسويق وتمرير مئات (بل الآلاف) الأكاذيب على البسطاء من أبناء المسلمين، فحتى يتم لكل من يسمي نفسه عالما تسويق فكره (حتى وإن كان منحرفاً كـ فكري هذا مثلاً) كان لا بد أن يتسلح بهذه الفرضية الخاطئة، ونحن نظن أنها خاطئة لأننا نؤمن أن ليس لله طريقان، فالسبيل إلى الله هي سبيل واحدة، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: 108]

وقد دعونا القارئ في الأجزاء السابقة إلى البحث عن السبيل الحقيقية، لكي لا توقع نفسك في شرك الذين يسمّون أنفسهم بالعلماء وما هم بأكثر من مرتزقة، يميلون حيث يميل هوى السلطان، فينفّذون له نزعاته وشهواته تحت غطاء الدين. وفي مهذا الجزء سنحاول تقديم أمثلة جديدة لنبيّن أهمية الفتوى الصحيحة التي تعيد الأمة بأكملها إلى جادة الصواب، والأمثلة هي:

⇐ الانضمام إلى الأحزاب
⇐ جواز السفر
⇐ الحج والعمرة
⇐ انضمام الأردن إلى مجلس التعاون الخليجي

ولكن قبل الخوض في مناقشة هذه القضايا، فإنني أعيد التأكيد على القارئ الكريم أن لا يقتنع بمثل هذه الهراء الذي نزعم، ونحن لا نطلب منه عدم الاقتناع بها فقط، لا بل نطالبه في الوقت ذاته أن يحاول إيجاد الهفوات والزلات لكي لا تكون حجة عليه إن طابق هواه ما جاء فيها، فهذه فتاوى لا تلزم سوى صاحبها (وقليل ممن ظنّ أنّ فيها شيئاً من الحق).

الانضمام إلى الأحزاب

لقد شغل هذا الموضوع حيّزاً كبيراً في الحياة السياسية المعاصرة، وأخذ من النقاش ما لا يمكن تلخيصه أو حتى الوقوف على محطاته الرئيسية، ولمّا كان ما يعنينا هو شرعية مثل هذا الأمر كان الهدف هو

تمحيصه من خلال الفتوى الدينية، فالسؤال المشروع الذي يجد الإنسان المسلم أنّ من حقه معرفته هو: هل يجيز الدين الانضمام إلى الأحزاب السياسية أو السياسية الدينية؟

ولمّا أصبحت كثير من الأحزاب السياسية تكتسب صبغة دينية، أصبح من البديهي الاعتقاد بشرعيتها، فها هم أهل الدين (وتجاره) يشكلون الأحزاب السياسية الدينية التي تتراوح بين أقصى اليمين (التطرف) وأقصى الشمال (الاعتدال) – (وبالمناسبة أنا لا أعرف لم توصف أحزاب اليمين بالتشدد والتطرف بينما توصف أحزاب اليسار بالاعتدال، فأنا أستخدم المصطلحات كما أسمعها من الإعلام حتى وإن لم أكن أفهمها، ربما لكي أظهر أني على درجة من الثقافة والمعرفة (حتى وإن كنت في واقع الحال لست أكثر من طبل أجوف أردد بصوت عال ما يدق عليه).

نعود إلى صلب الموضوع بالقول: هل التحزب أو الانضمام إلى الأحزاب أمر مباح في الشرع؟ ما يعنيني هو ليس تقديم فتوى ترشد الناس إلى جادة الصواب (لأنني ببساطة لست أهلاً لذلك)، وإنما جلّ اهتمامي هو وصف واقع الحال كما يمثّله علماء الإسلام والمسلمين، وندع لكل مسلم أن يتخذ السبيل الذي يظن أنها الحق.

أما بعد:

فجميعنا يعرف أنّ علماء المسلمين قد انقسموا إلى فسطاطين متضادين في هذا الموضوع: ففي حين أن بعضهم يبيح الأمر لا بل ويشجّع عليه، يجد آخرون أنّ التحزب مخالفة واضحة للشرع، وهنا يقع العامة (من مثلي) في حيص بيص، إلى من ينتمي: إلى من يبيح التحزب أم إلى من يحرّمه؟ والحالة هذه، فإننا نعيد السؤال نفسه الذي كررناه على الدوام في سلسة مقالاتنا هذه: أين يا ترى تكمن الحقيقة؟ هل هذا هو فعلاً ديننا؟ هل أصبح من المتعذر أن نجد في شريعتنا ما يهدينا إلى جادة الصواب ويجمع شمل الأمة على كلمة سواء؟

نحن على يقين أن السواد الأعظم من عامة أبناء المسلمين هم طلاب حقيقة، فهم على استعداد كامل أن يميلوا حيث تميل الحقيقة، ولكن -يا ترى- أين هي؟ هل هي مع الفريق أ أم مع الفريق ب؟ ثم، كيف لي أن أميّز؟

إننا نظن أن المسئول عن هذا التشرذم وهذه الحيرة هم العلماء الذين غالباً ما قسّموا الناس إلى طوائف وفرق بسبب زيف فتواهم. فنحن نظن أنه لو كانت النيّة خالصة لله، باحثة عن الحقيقة المطلقة، مجردة عن الرغبات والأجندة الخفية، لتوصلنا إلى الفتوى الصحيحة التي تسير بالأمة إلى بر الأمان. ولكن لمّا كان الهدف هو البحث عن أدلة تؤيد رأيي وموقف فرقتي وطائفتي، كان التذرع بالحجج الواهية الجانبية تقدم على أولويات الأمة بأكملها، فهمّ علماء طائفة معينة غالباً ما يقدّم على همّ الأمة جمعاء، ومصلحة شرذمة من الناس تسبق مصلحة الأمة كلها، لا لشيء وإنما لظنهم أنهم هم الفئة الناجية.

وسنبدأ من الحديث النبوي الذي غالباً ما يردده علماء المسلمين عن النبوءة في انقسام الأمة إلى بضع وسبعين شعبة كلها هالكة إلاّ واحدة، ففحوى الحديث النبوي هو:

انقسمت اليهود.......وانقسمت النصارى.............وستنقسم أمتي............

فمن هم الفئة التي كان عليها محمد وصحبه؟

الجواب: كل فرقة وكل حزب من أحزاب الأمة يظنون أنهم هم تلك الفئة، أليس كذلك؟

ولكن -يا ترى- أين أنا وأنت منها؟ فأنا لا أنتمي لأي منها؟ هل يعني ذلك أني هالك لا محالة؟

رب، رب، رب.... أين أذهب؟ ,إلى من أنتسب؟

لا شك أنك ذاهب إلى جهنم وبئس المصير سيرد أهل السنة ما دمت أنك لست منا، وهكذا سيرد أهل التشيع ما دمت أنني لست منهم، وهكذا سيرد أهل التصوّف ..... وأهل.... وأهل.... .

لذا، دعني أصدق بعضكم وأنضمّ أليهم لأنجو، فها أنا أنضمّ لأهل السنّة مثلاً لأنها الكتلة الأكبر بين التكتلات الإسلامية، ولكن لا زال هناك مشكلة: إلى أي من فرق وأحزاب أهل السنّة سأتبع؟ هل كلها على حق؟ هل يسامحني الإخوان المسلمون لو أنني كنت تحريرياً؟ وهل سيغفر لي التحريريون لو كنت سلفياً؟ وهل سيظن بي السلفيون خيراً لو كنت سلفياً جهادياً؟ وهل سيأخذني الصوفيون في رحلتهم إلى الجنة لو لم أحضر في حياتي ندوة من أيام سمرهم الربانية؟!

إنّ هذا التوصيف لا ينطبق فقط على أهل السنّة، وإنما ينطبق كذلك على أهل التشيع، فإلى أي فرقة وإلى أي حزب شيعي يجب أن أنتمي لكي ينتهي بي المطاف إلى جنات الخلد؟ ومن هم الذين يملكون مفتاح الجنة ويخفونه عن غيرهم؟ سيرد الجميع قائلاً (وإن لم ينطقها صراحة): لا شك أنا هو من تبحث عنه. فنحن نتحدى أن يظن أي من هذه الفرق والأحزاب أنه على خطأ، فمن الخطأ أن يظن البعض أن الفريق الآخر يعتقد أنه متمسكاً بفرقته وبحزبه مخطئاً، فلا شك أن كل فريق وكل حزب يظن أنه الفرقة الناجية؟ فأين -يا ترى- تكمن الحقيقة؟

فعلى أقل تقدير، أنا لا أعرف، ولو كنت أعرف لما تأخرت لحظة واحدة عن اللحاق بذاك الركب، ومن يظن أنه يعرف أسأله الله أن يدلّني.

فغالباً ما سوّق أهل العلم مبدأ الحاجة إلى التمسك بالمذهب والطائفة، ووصل الأمر أن ناصب بعضهم العداء بعضا، فها هو عالم جليل وقور ذو عمامة بيضاء يخرج على فضائيات المسلمين ليقول أن اليهود أقل خطراً على الإسلام من أهل التشيع، وها هو ذو عمامة سوداء يخرج على فضائيات الإسلام والمسلمين فلا يتردد في القول أن الجنّة لا يدخلها إلا من اتخذ علياً وليّا. وها هم من يسمّون بالمعتدلين يكفرون الجهاديين، وها هم الجهاديون لا يرون في المعتدلين إلاّ متخاذلين منافقين متخلفين عن الجهاد كالذين تخلفوا عن اللحاق بالنبي في تبوك. فأين -يا ترى- تكمن الحقيقة؟ ومن أوصل الناس إلى هذا المأزق؟ إنهم العلماء ولا أحد غير العلماء الذين فرّقوا الأمة، ولم يجمعوا شملها على كلمة سواء.

الدليل

لقد وجّه الله المسلمين أن يبسطوا أيديهم لليهود والنصارى إلى كلمة سواء، قال تعالى:

- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: 64]

فإذا كانت هذه الدعوة موجّهة لغير المسلمين، ألم يكن الأولى أن يوجه علماء المسلمين مثل هذه الدعوة إلى أبناء المسلمين على كافة فرقهم وأحزابهم؟ لم لا نلبي دعوة الله فنعود جميعاً إلى كلمة سواء بيننا؟ الجواب كلا، لأن الله قد حسم الأمر في قوله تعالى:

- ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: 53]

وكانت النتيجة المرعبة تتمثل في قول الحق تعالى:

- ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: 31-32]

أليست تلك إذاً هي حال المسلمين؟ ألم نصبح كالمشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون؟ أليس في هذا نهي من الله أن نفرّق ديننا، لا لشيء وإنما لظننا أننا نحن على صواب وغيرنا على خطأ؟

إنني أتحدى أن ينبري من علماء الفرق من يقول أن حزبي أو فرقتي على خطأ، أو أن يحاول إيجاد الخلل في ما يتبنى من أفكار وأطروحات.لقد كان ظن كثير من علماء المسلمين أن في التحزب توحيد للصف، وطريق لتوحيد الجهود التي يمكن أن تكون عامل ضغط في طريق توجيه المسيرة، فغالباً ما ظن الكثيرون أن اليد الواحدة لا تصفق، ولا بد من تكاتف الأيدي مع بعضها لإحداث التغير، فظنوا أن التحزب هو الطريق إلى ذلك، ولكن ها هي الثورات العربية الحديثة التي بدأت تؤتي أكلها في بداية عام 2011 تثبت لنا بما لا يدع مجالاً للشك بطلان وزيف وكذب دعواهم تلك، فلقد ظن أهل السياسية وكثير من أهل الدين أن الأحزاب هي طريق وسبيل التغيير، ولكننا نرى أن التغيير الذي حصل بسبب تلك الثورات كان ينأ بنفسه عن الأحزاب والتحزب، لا بل فقد كانت الأحزاب عبئاً على تلك الثورات، وكان من أهم أهداف ووسائل الثائرين أن يثبتوا للأنظمة الحاكمة (وللعالم أجمع) أن تلك الثورات لم تكن من صنيعة الأحزاب، وإنما هي ثورات شعبية حقيقية قام بها من ليس لهم صلة بالأحزاب من قريب أو بعيد، وحاولت الأحزاب أن تنأ بنفسها عن تلك الثورات لكي تتيح لها فرصة النجاح، وبكلمات بسيطة لقد أصبحت الأحزاب (التي كان يظن أنها أداة تغيير) عبئاً على التغيير. وحاولت الأنظمة الحاكمة التي تحاول إجهاض تلك الثورات إلصاق التهم بها، وما كان أفضل من تهمة التحزب ليتسلحوا بها ضد كل من ثار ضدهم. فأين يا ترى فائدة تلك الأحزاب؟ وأنا على يقين بأن ألد أعداء تلك الثورات في المستقبل هي الأحزاب نفسها، فنحن نتنبأ أن فشل تلك الثورات ستكون على يد الأحزاب التي ستحاول ركوب الموج بعد نجاح تلك الثورات، لتحاول تسخيرها لمصلحتها، وعندها سينشب الصراع بين تلك الأحزاب، الصراع الذي سيزيد في تفتيت الأمة، ونحن نتنبأ أن الصراع الأكبر سيكون بين الأحزاب التي تتخذ طابعاً دينيا مع الأحزاب ذات الصبغة العلمانية، فسيرفض كل طرف منهم أطروحات وبرامج الطرف الآخر، وسيمتد الصراع بعد ذاك إلى داخل الفريق الواحد، فستتنافس

الأحزاب مع بعضها البعض، ولكن المحزن في الأمر أن الذين لا يجيدون اللعبة سيدخلون الملعب بكل عشوائية وفوضى، ولا أخال أن العقل المسلم يستطيع أن يتقن لعبة الأحزاب والتحزب والتي هي في الأساس صنيعة الفكر الغربي الذي رضي أن يضع الدين على الرف في لعبة السياسة.

ثم، ألا ترى بأن انضمامك إلى حزب ما (بغض النظر عن ماهيته وتوجهاته) ستدفع بالآخرين لتشكيل أحزاب منافسة لك؟ فهل تظن أن الآخرين سيرون أنك تتحزب ويقفون صامتين؟ فهل تعتقد أن أهل السنة في العراق مثلاً سيقفون مكتفي الأيدي إن ظهرت التكتلات الشيعية؟ وهل ستظن أن أهل الشيعة سيبقون صامتين أمام الأحزاب السنّيّة المنادية إلى الوقوف صفاً لمواجهة خطر الفرق الأخرى؟

جواز السفر

لقد برز جواز السفر في القرن العشرين كوثيقة عالمية تتيح التنقل بين الكينونات السياسية، وأخذت كل دولة تصدر جواز السفر لرعاياها الراغبين بالتنقل من دولة إلى أخرى، وأصبح جواز السفر هو الوثيقة الرسمية التي تثبت للشخص حق مواطنته في أي دولة من دول العالم، فمن يحمل جواز السفر الأردني فهو مواطن أردني يتمتع بكامل حقوق وواجبات المواطنة لهذا البلد، ومن حمل جواز السفر الفرنسي، فهو بلا شك ملتزم لتلك الدولة بالمواطنة، وهكذا.

وقد سمحت قوانين بعض الكينونات السياسية بازدواج الجنسية ومنعتها كينونات أخرى، فمن يحمل جواز السفر الأمريكي مثلاً يستطيع أن يحمل غيره، ولكن لا يستطيع من كان نمساوياً حسب جواز سفره أن يكون مصرياً في الوقت ذاته، وهكذا

ولمّا كانت بلاد الإسلام والمسلمين كيانات سياسية متعددة أصدرت كل دولة من تلك الدول جواز سفر خاص بها، فالعراقي يحمل جواز سفر عراقي، والمغربي يحمل جواز سفر المغرب، والقطري يحمل جواز سفر قطري، وهكذا، وغالباً ما منعت كثير من هذه الدول ازدواج الجنسية بين بعضها البعض.

وفي خضم هذا التنوع الكبير برزت مشكلة خاصة بمجموعة من الناس وهم الفلسطينيون، الذين لم تتولد لهم إلى هذه اللحظة دولة خاصة بهم تصدر لهم وثيقة تسمى بجواز السفر الفلسطيني، وهنا أخذ الفلسطينيون الذين شرّدوا من ديارهم إلى البلدان الأخرى البحث عن تلك الهوية المتمثلة بتلك الوثيقة التي تسمى جواز السفر. وكان الهدف على الدوام هو البحث عن مخرج لهم يسهّل عليهم عملية التنقل بين الدول، فمن غير الممكن الدخول والخروج من وإلى كينونات سياسية مختلفة (أو ما يسمى بالدول) دون تلك الوثيقة، فبرزت الحاجة ملحّة أن يبحث فلسطينيو الشتات عن وثيقة تمكنهم من الانتقال بين البلدان المختلفة، فحاول كل منهم الحصول على جواز سفر الدولة التي استقر به الأمر فيها. فمن يسكن منهم في الأردن حصل على الجواز الأردني ومن سكن منهم في لبنان حصل على الجواز اللبناني ومن ذهب إلى الأرجنتين حصل على جواز سفر تلك الدولة، ولكن الأمر لم يكن على الدوام بتلك السهولة، ولم تحل مشكلة جميع الفلسطينيين الذين وجدوا أنفسهم خارج حدود فلسطين، فلا زال الكثيرون منهم لا يحملون ذلك الجواز، وكثير منهم يحمل وثيقة مؤقتة، وهكذا.

السؤال: هل يجوز شرعاً للفلسطيني الحصول على جواز سفر الدولة التي استقر بها؟

الجواب: لا.

لقد كانت حجة الفلسطينيين الكبرى ضد اليهود الذين احتلوا أرضهم واستولوا عليها بالقوة هي أن أولئك اليهود هم مواطنون جاءوا من دول أخرى ويحملون جنسيات تلك الدول متمثلة بجوازات سفرهم، فمنهم الروسي والبولندي والألماني والفرنسي والأمريكي والعراقي والإيراني واليمني والسوري وغيرهم، قدموا إلى تلك الأرض واحتلوها بالقوة، وأخرجوا أصحاب الأرض من ديارهم، وها هم اليهود يماطلون في المفاوضات وخاصة فيما يتعلق بحق العودة –على ما أظن- إلى اليوم الذي لا يبقى فيه فلسطيني واحد ممن هجّر من أرضه على قيد الحياة، ويكون كل فلسطيني على وجه المعمورة قد ولد على تراب دولة أخرى ويحمل جواز سفرها، عندها سينبري اليهود للقول للعالم أن هؤلاء الفلسطينيين هم مواطنون أردنيون وسوريون ولبنانيون وكويتيون وأرجنتينيون وألمان وفرنسيين وكنديين، ...الخ، ونحن هذا الجيل من اليهود من ولد على تراب هذه الأرض ومن يحمل جواز سفرها، فأي يحق يدعيه هذا الفلسطيني الذي لم يعش يوماً واحدا على تراب هذه الأرض؟ عندها ستتساوى حجة الطرفين، ليعود كل منهم إلا حجة الإرث التاريخي، وعندها ستكون حجة اليهود أقوى من حجة الفلسطينيين ما داموا أنهم (أي الفلسطينيون) لم يولدوا على تراب تلك الأرض ومادام أنهم يحملون جوازات سفر بلدان أخرى.

إن نقطة القوة التي كانت تدافع عن الحق الفلسطيني ستنقلب مع مرور الزمن إلى نقطة ضعف لهم ونقطة قوة لعدوهم الذي اغتصب أرضهم، لقد كان الأولى بكل فلسطيني يعيش في أي مكان على وجه المعمورة أن لا يرضى بجواز سفر غير جواز السفر الفلسطيني، إن في قبوله لجواز سفر إي دولة أخرى إهدار لحقه في مواطنته الفلسطينية.

وقد يرد البعض بالقول على الفور: لقد كان الفلسطينيون بحاجة إلى جواز سفر للتنقل، فذاك مما أملته الظروف وواقع الحال، فنقول لا ريب في ذلك، ولكن كان الأجدر بجامعة الدول العربية، والأجدر بالحكومات العربية، والأجدر بمن فرض نفسه ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني أن يدرك الحاجة إلى إصدار وثيقة خاصة بالشعب الفلسطيني تبيّن هويته وانتماءه، وعندها لن يستطيع العالم بأكمله أن يمنع شعباً كاملاً من التنقل، ولكنه سيقبل بتلك الوثيقة كواقع حال. وستبقى القضية الفلسطينية والمواطنة الفلسطينية على وجه التحديد حيّة غير قابلة للمساومة، ولكن لما قبل الكثير الكثير من أبناء الشعب الفلسطيني هوية وجنسية غير جنسيته الفلسطينية، سيطلب منه العالم بعد ذلك تحمل تبعات هذا الخيار، ولا أظن أن أي مفاوضات للسلام -كما يزعموا- ستفضي إلى حق العودة لمن يحمل جنسية غير الجنسية الفلسطينية، ويستطيع المفاوض اليهودي والأمريكي والغربي القيام بذلك بكل سهولة ويسر على النحو التالي: القبول بالدولة الفلسطينية التي لا تسمح قوانينها ودستورها بحق ازدواج الجنسية، ولو راقبنا ما يعمل الكيان الصهيوني لوجدنا أن ذلك واضح في أجندته، فهو يحاول بكل الوسائل وشتى الطرق إصدار التشريعات التي تتيح نزع الجنسية عن العدد الأكبر من الفلسطينيين، لتكون تلك نقطة مساومة مع الطرف الآخر.

فأنت كفلسطيني لا يحق لك أن تحوز كل شيء مرة واحدة، فسيأتي اليوم الذي ترى فيه كيف أن حيازتك على هوية غيرك قد أضاعت حقك (وربما حق أبناءك من بعدك) في فلسطينيتك، ألم يكن الأجدر بك أن تتمسك بهويتك بدلاً من المطالبة بهوية غيرك؟ وما دمت أنك قد قبلت أنت بهوية غيرك، فهل

تعتقد أن أبناءك سيتنازلون عن هويتهم الجديدة؟ وهل سيقبل العالم بعد ذلك أن تجتمع كل تلك الهويات على أرض فلسطين مرة أخرى كما فعل مع اليهود من ذي قبل؟!

ولكن يبقى هناك سؤال آخر يخص المسلمين بشكل عام وليس فقط الفلسطينيين الذين هجّروا من أوطانهم، والسؤال هو: هل يجوز للمسلم استخدام جواز السفر في التنقل من بلد إلى آخر؟
إننا نظن أن الجواب هو: نعم ولا

لذا يجب تفصيل السؤال بشكل أكثر دقة على النحو التالي:

هل يجوز للمسلم استخدام جواز السفر للتنقل بين الدول العربية الإسلامية؟

الجواب: لا

هل يجوز للمسلم استخدام جواز السفر للتنقل بين الدولة المسلمة والدولة غير المسلمة؟

الجواب: نعم

إننا نظن أن الجواب على السؤال الأول (هل يجوز للمسلم استخدام جواز السفر للتنقل بين الدول الإسلامية؟) هو النفي قطعاً. إننا نؤمن إيمانا راسخاً أن التنقل بين الدول العربية والإسلامية باستخدام وثيقة جواز السفر أمر لا يقبله الشرع، وفي هذا كلام غاية في الغرابة والخطورة، لما يترتّب عليه من عواقب قد تصل إلى درجة الكارثية في بعض الأحيان. ولكن قبل التسرع للحكم على مثل هذا الزعم، فإننا نطلب منحنا فسحة من الوقت لتبيان الأصل العقائدي لمثل هذا الظن.

أما بعد:

لعل الجميع يدرك أن للشريعة مقاصد، وقد أفرد العلماء فصولاً في مؤلفاتهم وفي فقهم لموضوع مقاصد الشريعة، وبكلمات بسيطة جداً فإن هذا الفرع من العلم الشرعي يبحث في ماهية التحليل والتحريم: لم يحرم هذا ويحلّ ذاك، وتبيان أثر ذلك على حياة المسلم أولاً، وحياة الناس كافة من بعد ذلك.

وللعامة حق ودين في أعناق العلماء أن يبينوا لهم مقاصد الشرع فيما حرم عليهم وأحل لهم، فإن أنت تحدثت عن تعدد الزوجات كان لزاماً أن يفهم الناس مقاصد الشريعة في ذلك، وإن أنت تحدثت عن ما يؤكل وما لا يؤكل كان لزاماً أن يفهم الناس الغاية والهدف من وراء ذلك، وهكذا.

والخوف كل الخوف أن كثيراً من الناس ظن أن الحلال والحرام يكمن فقط في العبادات وطريقة تأديتها وفي المعاملات البسيطة، ونسوا أن هذا الدين هو منهج حياة, وحتمية أن يعرض كل أمر في حياة المسلم على الدين، فإن أجازه الدين فله ذلك، وإن منعه فعليه أن يحذر منه ويبتعد عنه، فالحرام والحلال لا يقتصر على أحكام الحيض والنفاس والمسح على الخفين فقط، , ولكنه يخص أمور المسلمين جميعاً

دون استثناء، وإن صحّ هذا الزعم، فلا ضير إذاً أن نطرح أسئلة مثل:
ما رأي الدين في إصدار وثيقة تسمى بجواز السفر؟

الجواب: لا ضير في ذلك

ثم، هل نستخدم جواز السفر للتنقل بين دول الإسلامية وغير الإسلامية؟

الجواب: نعم

لكن، هل يجوز استخدام جواز السفر للتنقل بين الدول الإسلامية؟

الجواب: لا

ولكن لماذا؟

الرأي: ما دام أن جواز السفر هو وثيقة للتنقل بين الدول، فإن ذلك مما ينظم حياة الناس، ويسهل عليهم، ويضبط حركة الانتقال لتكون سلسة مرنة، ينتج عنها المصلحة للبشرية جمعاء، فبغير تلك الوثيقة ربما تعم الفوضى ويكثر الخراب، وتصعب حياة الناس، لذا فمقصد الشريعة واضح لا لبس فيه، أليس كذلك؟
ولكن لما لا يجوز استخدام جواز السفر في التنقل بين الدول الإسلامية؟ ألا ينظم ذلك حركة الانتقال ويسهل حياة الناس؟

- بلى، هو كذلك،

- إذاً، أين تكمن المشكلة؟

إننا نعتقد أنه في الوقت الذي ينظم استخدام جواز السفر حركة الناس بين الدول العربية والإسلامية ويضبطها ويحقق مقصد من مقاصد الشريعة ألاّ أنه يحدث ضرراً أكبر من ذلك بكثير، ولا شك أنّ القاعدة الشرعية التي أختطها العلماء منهجاً في فتواهم تتلخص بالمقولة التالية:

در المفاسد أولى من جلب المصالح

وبكلمات بسيطة فإننا نزعم القول أنه إذا كان استخدام جواز السفر بين الدول الإسلامية يحقق مصلحة، فهو في الوقت ذاته يجلب مفسدة أكبر من المصلحة التي يحققها.
- ولكن كيف؟

لعل الجميع يجزم أن حيازتك جواز السفر الأردني أو السوري أو اللبناني أو المصري يعني أنك تنتمي إلى ذاك الكيان السياسي، وتقبل به كواقع حال، أليس كذلك؟

فأنت عندما تسافر من مصر إلى أمريكا مثلاً فأنت – بلا شك- بحاجة أن تستخدم جواز سفرك المصري، وعندما تدخل حدود تلك الدولة الأجنبية يقوم الموظف المسئول على الحدود في تلك الدولة بختم جواز سفرك بالختم الأمريكي، لتقر بأنك قد دخلت كياناً سياسياً جديداً، أليس كذلك؟
إذاً فأنت بهذه الطريقة تقبل أن تتعامل مع الدولة المضيفة لك ككيان سياسي يتمتع بمواصفات الدولة، التي يجب الاعتراف بها والتعامل معها على تلك الشاكلة.

والآن لنتخيل نفس الموقف بين الدول العربية والإسلامية على النحو التالي: فلو كنت تحمل جواز السفر المصري ودخلت الحدود الأردنية، ألا يقوم موظف الحدود الأردني بختم جواز سفرك المصري بالختم الأردني كما فعل موظف الحدود الأمريكي من ذي قبل؟ إذاً أنت (كحامل لجواز السفر المصري) تتعامل مع الكيان الأردني كتعاملك مع الكيان الأمريكي، وقبولك بالختم الأردني يعني اعترافك بهذا الكيان السياسي كدولة تتمتع بمواصفات الدولة التي يجب الاعتراف بها والتعامل معها على تلك الشاكلة، أليس كذلك؟

والحالة هذه، دعني أسأل من يقبل بالفكر الإسلامي كدستور حياة سؤالاً واحداً فقط وهو: هل فعلاً تعترف بالأردن كدولة تتمتع بكامل مواصفات الدولة التي يجب الاعتراف بها والتعامل معها على تلك الشاكلة؟ هل تقر بأن الدولة الأردنية هي دولة مستقلة يجب أن تعاملك كما يعملك الأمريكان أو الأوربيون أو الصينيون أو الهنود؟ وهذا السؤال يطرح بخصوص جميع الكيانات السياسية من شرق العالم الإسلامي إلى غربه، هل فعلاً تشكل هذه الحارات والمزارع التي اقتطعتها عائلات حاكمة وأورثتها لأبنائها، وثبّتت حدودها اتفاقيات سيكس بيكو ومعاهدات سان لوران ووعود بلفور وغيره كدول ذات سيادة واستقلال؟ إن في قبولك أن يختم جواز سفرك بالختم الأردني أو اللبناني أو العراقي أو اليمني أو البحريني أو السعودي، الخ. هو إقرار منك باستقلالية تلك الكيانات السياسية؟

لذا فإنني أدعو علماء المسلمين جميعاً للإجابة على سؤال واحد وهو: هل تضفون الشرعية الدينية على هذه الكيانات السياسية؟ هل تقر كمسلم باستقلالية هذه الدول كل على حدوده التي رسمت له؟ هل تقر بالتقسيم السياسي لبلاد الإسلام كما هو عليه الآن؟

والآن لنتخيل ما كانت ستعمل فتوى شرعية مثل هذه بحال وواقع الأمة الإسلامية السياسي، إن أقل ما كان لمثل هذه الفتاوى أن تحدث في العالم الإسلامي هو إيصال رسالة إلى هذه العائلات والأنظمة الحاكمة التي نهبت البلاد وأذلت العباد أننا كمسلمين –وإن كنا مجبرين أن نتعامل مع ظرف واقع فإننا في الوقت ذاته- لا نؤمن به ولا نقره في شرعنا، وقد كان بإمكان أبناء المسلمين تطبيق ذاك بكل يسر وسهوله، فمن أراد من أبناء الثراء الذهاب في النزهات والرحلات فلا يحتاج إلى جبال لبنان وخضراء تونس وحسناوات الشام والمغرب، فهناك البديل في اليونان وقبرص ورومانيا وروسيا، ومن أراد من أصحاب العلم والاختصاص حضور المؤتمرات العلمية، فلا حاجة له بالأردن والعراق ومصر، فهناك الكثير منها في بريطانيا وكندا وأمريكيا، ومن أراد التجارة فلا حاجة له بدبي والدوحة، فهناك الفرص الأكبر في بانكوك وبكين وسيؤول، وليفهم المحتل الأجنبي والغاصب المحلي أن هذه الأرض ليست مزرعة أبيه يدخل فيها من يشاء ويحرمها على من يشاء.

ولعلنا نزعم أن لمثل هذه الفتوى تبعاتها التي ربما تصل إلى درجة الكارثية منها مثل أحكام تتعلق بالعمرة والحج والجهاد وسنتناولها بالتفصيل واحدة بعد الأخرى.

رحلة العمرة والحج

إذا كانت عقيدة السادة العلماء أصحاب الفكر الديني الإسلامي تتمثل في الظن أن بلاد الإسلام هي بلاد واحدة كما تغنوا بذلك صباح مساء على كل منبر للخطابة وعلى كل شاشة في فضاء هذا الكون الفسيح،

وأن التقسيم الحاصل على أرض الواقع هو صنيعة غربية بامتياز لا يجب أن نقر بها، فإنني أظن أن من أبسط تبعات هذا الظن هو أن الله قد أسقط عني فريضة الحج والعمرة والجهاد.
- ولكن كيف؟

أما بالنسبة للعمرة، فغالباً ما دعاني أصحابي إلى الذهاب معهم في رحلة عمرة إلى بيت الله الحرام، وألحّ عليّ الأهل في ذلك، وأنكروا عليّ موقفي الثابت منذ سنين بأني لا أنوي العمرة إطلاقا، وظنوا أنما اسقط بهذا الفعل سنّة من سنن النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي الوقت الذي لا أحاول الدفاع عن موقفي معهم، ولا أحاول أن أثنيهم عن عملهم (لاحتمال خطأ ظني وصدق فعلهم)، إلاّ أنني لم أستطع الاقتناع بصحة القيام بأداء سنة العمرة كلما حاولت إقناع نفسي بذلك. أما السبب الذي دائماً ما كان يثنيني عن القيام بمثل هذا العمل الديني (مع توافر القدرة المادية والجسمية لدي) يتمثل في أنني إذا ما ذهبت في رحلة العمرة فإنني سأضطر للوقوف على الحدود الأردنية السعودية أو في واحدة من المطارات السعودية، وسيطلب مني الموظف المسئول إبراز جواز سفري (الذي استخدمه في الترحال بين الكينونات السياسية المستقلة) ليختمه بالختم السعودي، وعندها سيكون ذلك بمثابة إقرار مني باستقلالية تلك المنطقة الجغرافية تحت المسمى المتعارف عليه بين الناس بالمملكة العربية السعودية. وما دمت أنني أظن أن من واجبي الديني هو عدم الاعتراف بذاك الكيان (ولا بغيره من الكيانات الأخرى من بلاد الإسلام والمسلمين وعلى رأسهم البلد الذي أنتمي إليه وهو الأردن) كدولة مستقلة، فإنني عندها سأرفض أن يدمغ جواز سفري بذاك الختم السعودي، وعندها لا أظن أنهم سيخلّون سبيلي إلى العمرة. وهنا سأقع في هذا المفترق: أيهما أولى الالتزام به: أداء مناسك العمرة وقبول الاعتراف بالدولة السعودية أم الكف عن أداء مناسك العمرة وعدم الاعتراف بالدولة السعودية؟
- أما أنا فقد اخترت الطريق الثانية ما دام أن العمرة ليست فرضاً على المسلم!!!

رحلة الحج

- ⇐ ولكن ماذا بالنسبة لرحلة الحج؟ أليس الحج فرض وركن من أركان الدين؟
- ⇐ أيهما أولى القيام بالحج مع الاعتراف بالدولة السعودية أم الكف عن الحج مع عدم الاعتراف بالدولة السعودية؟

الجواب: لا زال أمامي متسع من الوقت لاتخاذ القرار، فانا لازلت في العقد الرابع من العمر، ولست ملزماً بالحج – كمواطن أحمل جواز السفر الأردني- إلا بعد انقضاء النصف الأول من العقد السادس من العمر على أقل تقدير. فالحج في الأردن (على غير ذلك في كثير من بقاع الأرض الأخرى) يتم على الدور، ففي كل عام يتقدم من يريد الحج إلى وزارة الأوقاف الأردنية، ليتم التنافس الشريف بين المتقدمين، ويفوز بالجائزة من ينتمي إلى واحد من فريقين:

- ⇐ الفريق الأقدم في العمر
- ⇐ الفريق الأقدر على سلوك الطرق الملتوية.

أما بالنسبة للفريق الأول وهو الأقدم في العمر، فذاك أمر واضح من شهادة الولادة، ولا أعتقد أن الذي لم يتجاوز بداية العقد السادس من العمر يمكن أن يقع عليه الاختيار، فعادة ما يكون ذلك معلناً للجميع، فتخرج الوزارة بالقرار التالي: وقع الاختيار على من ولد قبل عام 1943 لهذا العام، وهكذا.

ولكن هناك طريقة أخرى غالباً ما يسلكها أهل النفوذ في البلاد، وهي الفوز بـ فيزة الحج بطرق أخرى، كالواسطة أو المنحة أو الهبة، وهكذا، فيذهب هؤلاء النفر للحج (لأداء ركن من أركان الدين) وهم مطمئنون أنهم لم يأكلوا حق غيرهم، ويعودوا وقد اغتسلوا من ذنوبهم كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، والحمد لله!

ولكن، ألم يسأل هؤلاء النفر أنفسهم السؤال التالي: كيف لي أن أقوم بتأدية ركن من أركان هذا الدين بطريقة ملتوية؟ هل يجوز لي ذلك؟ هل يجوز أن اغتصب حق غيري لأتعجل بأداء هذه الفريضة؟ ألم تكن تلك الفيزا التي حصلت عليها من حق شخص آخر ممن بلغ من العمر ما بلغ وربما تسبقه المنية ولا يشهد العام القادم ليتقدم للمنافسة من جديد على تلك الجائزة؟

ثم، هل لو لم تكن وزيراً أو نائباً في البرلمان أو صاحب نفوذ أو واسطة، هل كنت ستتمكن من الحصول على تلك الفيزا، فهل كانت تلك الفيزا ستصلك لو جلست في بيت أبيك ولم تستغل منصبك وموقعك؟!

ثم ألم يسأل من يسمي نفسه وزير الأوقاف وطاقم وزارته أنفسهم السؤال التالي: لم يذهبون في كل عام لأداء مناسك الحج مع بعثة الحج الأردنية؟ ألم يكن الأولى بهم أن يتركوا تلك المقاعد لمن هرم وهو ينتظر دوره؟ ولم يأخذوا البدلات والمكافآت على رفقتهم لقافلة الحج؟ وعلى حساب من كل ذلك؟ أليست العمرة بمئتين من الدنانير الأردنية؟ لم يصبح الحج بألفين؟! أليس ذلك من جيوب المساكين والفقراء الذين أمضوا العمر يوفرون لهذا الرحلة؟ وما هي إلا أيام لتنتقل تلك الثروة العظيمة (في نظر الفقير) إلى فتات من المال (في جيوب المرتزقة ممن يرافقون بعثت الحج كمسئولين).

- لا لا لا، الأمر ليس كذلك، فهؤلاء الموظفون يقومون بواجب عظيم في تسهيل أمر الحجاج

- آه لقد غفلت عن ذلك، ولكن الجميع مدعوين لسؤال من حظي بشرف صحبة الوزير في السنوات السابقة عن التسهيلات العظيمة التي وفرتها لهم رفقة معاليه وصحبه.

نعود إلى صلب الموضوع بالقول أني لن أختار الطرق الملتوية للقيام بأداء ركن من أركان الدين، ولو عرضت عليّ فيزة الحج في كل عام لما قبلتها وسأنتظر دوري على القائمة، فإن أبقاني الله حياً حتى ذلك التاريخ (أي يوم أن يتم اختياري بناءً على عمري) فسأتقدم بالاستدعاء التالية لسفارة السعودية معلناً عن رغبتي في أداء فريضة الحج كركن من أركان الدين:

نص الاستدعاء:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام على من اتبع الهدى،

أما بعد،

الموضوع: طلب أداء فريضة الحج

فلما كنت أنا المدعو رشيد سليم الجراح لا اعترف بكم ككيان سياسي مستقل ولا أؤمن بجواز تقديم جواز سفري لكم لكي يختم بإذن الدخول من حكومتكم إلى أرض الحجاز لدواع شرعيّة، فإنني أتقدم بطلبي هذا لتخلوا سبيلي إلى ذلك دون تقديم هذه الوثائق، فان رفضتم فإني أحملّكم المسؤولية المترتبة على عدم قيامي بأداء هذا الواجب الديني أمام الله يوم الحساب الأكبر، وإن أخليتم سبيلي وما أنا مقدم عليه فتلك ليست منّة منكم بل هو حقي أنتزعه بحق الله وحق رسوله وحق هذا الدين.

تحريراً بتاريخ -------------

الموافق --------------

أما لمن أراد أن يفهم الدافع الشرعي من وراء ذلك، فأقول أن الله قد جعل البيت الحرام قياماً للناس، وليس لأحد حق فيه يمارسه علينا كمسلمين، فالمسلم لا يطلب من مسلم إذن في حق له، فلِمَ نطلب نحن منكم الأذن بالحج بينما لا تطلبوه أنتم منّا؟ هل لأنّ بعير أجدادكم قد ناخ واستراح في تلك الأرض يجعل لكم الفضل به علينا؟ ولكن ألم يستهم بعير أجدادنا فمضى في طريقه إلى الجهاد والفتح؟ هل من الدين أن يُمنَع من خرج أجداده في طريق الفتح أداء فريضة الحج إلا بإذن من ناخ بعير أجداده وتقاعص عن الجهاد؟!

الجهاد

يطربنا أهل الفضائيات صباح مساء بخطبهم عن الأمة الإسلامية كأمة واحدة ذات رسالة خالدة كما أطربنا بها القوميون في شعاراتهم على مدار قرن من الزمن.ولكن المفارقة أن الإسلاميين يستندون إلى مرجعية عقائدية في تصوراتهم، فهم يعتقدوا أن في هذا الظن سلوكاً دينياً يتلخص بما جاء في قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: 92]

لذا، فعندما يطرق موضوع الجهاد، ينبري أصحاب العمامات البيضاء والسوداء جميعاً للاستشهاد بالحديث النبوي التالي الذي فحواه:

إذا احتل شبر من أرض المسلمين، بات الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة

فيلبي كثير من المسلمين النداء ظانين أن هذا واجب ديني تفرضه الشريعة، فقد خرجوا للجهاد متسلحين بهذا الحديث حتى لو كان ذلك في بلاد الشيشان أو أفغانستان أو فلسطين أو البوسنة أو الهرسك، وهكذا.أما أنا فأظن أن موقفي يتلخص بما يلي: لا بد من تعطيل هذا الحديث في الوقت الراهن حتى يتم تصويب الأمر، وإن استمر الحال على ما هو عليه فلا أظن أني ملزم أن أجاهد في أي معركة من هذه المعارك. ولكن لماذا؟

الجواب: غالباً ما تسلح العلماء بالدين للدفاع عن مواقفهم، وهم لا شك ممن يدعون إلى تحكيم شرع الله والاحتكام إليه في كل صغيرة وكبيرة، وهاديهم في هذا قول الحق:

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: 65]

والعلماء لا يختلفوا في أن شرع الله هو الفيصل في كل شيء، وعندما يتبين لهم أن هذا الطريق أو ذاك هو سبيل الحق فلا شك أنهم متبعوه لا محالة، وهم على استعداد على الدوام أن يميلوا إلى الحق حيثما كان، وأن يتراجعوا عن مواقفهم إن ثبت لهم أنها غير سبيل الحق، فهم يقرؤون في كتاب الله قوله تعالى:

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 36]

فقضاء الله لا محالة هو الحق، وما دونه فهو الباطل، ونحن كمسلمين لا نقبل بأقل من الحق سبيلا، أليس كذلك؟

إن من اتخذ سبيل الإسلام منهاج حياة، لا بد أن يمتثله في كل صغيرة وكبيرة، فلا يحق لي كمسلم أن آخذ من الإسلام ما أريد وأترك ما لا أريد، فهذا طريق النفاق ولا شيء غير النفاق، فنحن كمسلمين نؤمن بالكتاب على كليّته، ولا نتخذ – كما فعل اليهود والنصارى من قبلنا- منهاجاً منحرفاً يتلخص في أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعضه، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 85]

إذاً فالخزي هو العقاب في الدنيا، والعذاب الشديد هو المرد في يوم القيامة لمن كان هذا هو سلوكه، إذاً فنحن مطالبون كمسلمين أن نتمسك بهذا الكتاب على كليّته، وأن نذهب معه حيثما يأخذنا دون تردد ولا وجل.وما دام الأمر على هذا النحو فنحن نلتزم بما في هذا الكتاب حتى ولو كلّفنا ذاك الالتزام الكثير كما قد يبدو لنا من الوهلة الأولى.

إن خلاصة المراد تتمثل في الاعتقاد بأننا كمسلمين نستفيد من الدين بقدر ما يتيح لنا الدين الاستفادة ومكلفين بالواجبات بقدر ما يطلب منك هذا الدين من الواجبات، ولتبسيط الأمر نقول: هل يقبل علمائنا الأجلاء أن نقيم الصلاة ونترك الزكاة؟ أم هل يتقبل علمائنا الإجلاء أن نأخذ من غنائم الحرب ولكن دون أن نجاهد؟ وهكذا. الجواب كلا بكل تأكيد، فمن يريد الغنيمة من الحرب لابد أن يكون قد استل سيفه ومضى في طريق الجهاد، ولكن لا تستطيع أن تطلب مني حصتك في الغنائم ما دام أنك تقاعست ولم تخرج في طريق الجهاد، أليس هذا منطق مقبول عند علمائنا الإجلاء؟

إذاً، فالإسلام الذي يطلب منك الجهاد لا يحرمك حقك في الغنيمة، والمسلم الذي لا يخرج للجهاد لا يحق له أن يطالب بحصته في الغنائم، فكما يطلب منك الإسلام القيام بالواجبات فهو في الوقت ذاته لا يحرمك الحقوق، فالإسلام يعترف للمسلمين بحقوقهم وواجباتهم، *فهو لا يطلب من الناس واجبات ويحرمهم الحقوق، وهو لا يعطيهم حقوقاً ما داموا لم يقوموا بواجباتهم.*

ولنعد الآن بعد هذه المقدمة الطللية إلى موضوع الحديث عن الجهاد في الحديث الذي ذكرناه سابقاً وهو:
إذا احتل شبر من أرض الإسلام بات الجهاد............

والآن لنتخيل أن أعز أرض الإسلام (مكة المكرمة)- لا قدّر الله- قد اُحتلت، ألا يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة في بقاع الأرض حسب رأي المنظرين للحديث السابق الذكر؟

الجواب: حسب رأي علماء المسلمين قاطبة وحسب رأي عامة المسلمين (باستثنائي أنا بالطبع)- نعم، هو كذلك، يصبح من الواجب على كل مسلم الدفاع عن حرم الإسلام والمسلمين الأول مكة.
أما أنا فلا، فوالله الذي لا إله سواه- ليس عليّ جهاد، ولست مكلفاً شرعاً ن أدافع عن مكة.

وقد يستغرب البعض مثل هذا القول ويتساءلون عن السبب في هذا الموقف الشاذ (كشذوذ صاحبه)، وربما يقتبس البعض هذا القول معزولاً عن النص الكلي –كما فعلوا أكثر من مرة- ليتم التشهير ببدع رشيد الجراح، ولكن مهما يظن ويفعل الآخرون، فإن هذا الرأي يمثل الدين الذي أؤمن به، ولا يهمني ولوضلّ الناس جميعاً.أما السبب الذي دفعني إلى اتخاذ هذا الموقف العقائدي فهو ما ذكرنا في مقدمة هذا الكلام سابقاً، وملخّصه أن هذا الدين يقر بالحقوق والواجبات، فهو ليس حق دون واجب وهو ليس واجب دون حق، ولنوضّح الصورة على النحو التالي:
أليس من واجبي إذا احتلت مكة أن أدافع عنها؟ نعم هذا واجب شرعي.

ولكنّ مكة الآن غير محتلة وهناك خيرات كثيرة وفيرة في مكة، أليس لي من حق في خيرات مكة اليوم حتى إذا ما احتلت غداً خرجت مدافعاً عنها؟ أم أنّ من واجبي كمسلم الدفاع عن مكة يوم أن تحتل، وليس لي من حق في خيراتها قبل أن تحتل؟

هل أنا –كمسلم- مكلّف بواجباتي الدينية في الشدائد ولا حقوق لي في الرخاء؟ هل يناديني علماء المسلمين للخروج في الجهاد للدفاع عن مكة في وجه المحتل ولكنهم يمنعوني عنها الآن ليرفلوا هم في دمقسها وحريرها أيام الرخاء؟ هل أنا – كمسلم- مطلوب في وقت الشدة ومطرود في وقت الرخاء؟ أي إسلام هذا الذي تتحدثون عنه؟! وأي إسلام هذا الذي يدعوني في الشدائد وينساني في الرخاء؟! إذا كان الدين على هذه الشاكلة (أن يطلب الناس في الشدة ويطردهم في الرخاء) فوالله الذي لا إله سواه ليس هذا هو الدين الذي أؤمن به. إنّ ديني الذي أؤمن به هو الدين الذي لا ينساني في وقت الرخاء فلا أتردد عن نصرته في وقت الشدائد والمحن. وهذا الكلام ينطبق على كل بلاد الإسلام والمسلمين؟

ولنتصور السيناريو نفسه حقيقة واقعة على الأرض، فها هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين (القدس الشريف) واقع تحت قبضة يهود منذ عقود من الزمن، فهل مطلوب مني –كمسلم- أن أنصر الأقصى حتى لو كنت من سكان الصين أو اندونيسيا، ثم إذا ما تحرر الأقصى وحاولت أن أشد الرحال إليه، لا أستطيع ذلك إلا بتأشيرة من عباس وصحبه؟!

إذاً أنا كمسلم مطلوب مني شرعاً أن أهبّ لنجدت أقصى عباس وصحبه، ليقيم هو دولته، ويصدر جواز سفره، وتأشيراته، فلا يستطيع المسلم التمتع بخير الأقصى إلا إذا أذن له من ناخ بعير جده في تلك الديار، أليس هذا هو منطقكم يا ساده؟!

كلا وألف كلا، والله لن أقبل أن يسألني الله عن واجبي في الدفاع عن الأقصى مادام أنكم قد جعلتموها حقيقة على أرض الواقع أن ليس لي حق في الأقصى يواز حق من يسكن أرض الأقصى، كما لا يطلب مني الدفاع عن مكة مادام أني لا أتمتع بخير مكة، وليس مطلوب مني الدفاع عن بلاد الرافدين مادام أن خيرات الرافدين لا تتجاوز حدود التي رسمتها سيكس بيكو، وهكذا.

ولكم يا علماء الفضائيات والمنبرين لفقه الجهاد نقول: إنكم لا تستطيعوا أن تلزموا الناس بواجباتهم مادام أنكم حرمتموهم من حقوقهم، فالدين ليس سيفاً يسلط على رقاب الناس متى شئتم وكيفما رغبتم، فمن يطلب من الناس الواجبات عليه أن يعترف لهم بحقوقهم. فهذا هو منطق الدين، فمن لبس عباءة الدين لا يحق له أن يفصّلها على مقاسه!

فهل يحق –مثلاً- لكل من يتخذ من الدين منهاجاً في بلاد الخليج أن يطالب كافة المسلمين بحق الجهاد عن الخليج إن تم الاعتداء عليه وهو الذي تمتع بخير الخليج وحده ومنع ذلك عن كل المسلمين؟ وهل يحق – مثلاً- لكل من سكن الشام أن يطالب عامة المسلمين بحق الدفاع عن الشام مادام أنه يمنع كل من أراد الاصطياف في الشام إلا بإذن الدخول؟

وهل يحق –مثلاً- لمن سكن مصر أن يطالب كافة المسلمين الدفاع عن أرض الكنانة ما دام أنه لا يعترف بالمصرية إلا لمن ولد على أرضها؟!

وهل......؟

وهل......؟

إنني أفهم أنك تطلب من المسلمين حق الجهاد عن بلد مسلم إذا كان خير ذلك البلد يعود على كل الإسلام والمسلمين، أما إذا كان خير تلك الديار مقتصراً على من يسكن تلك الديار فهم وحدهم من يقع عليهم شرعاً حق الدفاع والذود عن ديارهم، ولا يظنون أن من واجب غيرهم من أبناء المسلمين نجدتهم في أوقات المحن ماداموا أنهم قد نسوهم في وقت الرخاء، ولا يحق لأهل العمامات أن يمثلوا ذلك وبكأنه واجب شرعي على كل المسلمين في كل مكان، فهذه والله ليست بأكثر من أكذوبة للدعاية الإعلامية، فيا من تتخذ من الإسلام منهجاً ادفع للمسلمين حقهم قبل أن تطلب منهم الواجب الشرعي المفروض عليهم.

ألا تستحق كل هذه الثروة المتوافرة في بلاد المسلمين من كبار علماء المسلمين فتوى شرعية تتعلق بمن يملك هذه الثروة، ومن هم الذين يحق لهم التمتع بها، فليخرج مثلاً علماء الخليج ويقولوا لنا أن الثروة التي وجدت في بلاد الخليج هي حق لأهل الخليج فقط، ونحن على استعداد لقبول هذه الفتوى بكل صدر رحب، لأننا عندها سنكون في حل من كل التبعات المترتبة على هذه الفتوى، لكننا لن نقبل من علماء الخليج – لأننا لسنا ساذجين لهذا الحد- أن يصدروا الفتوى بأن هذه الثروة خاصة بأهل الخليج ولكن الجهاد عن كل شبر من أرض المسلمين (حتى لو كانت مكة نفسها) هي واجب على كل مسلم ومسلمة.

ونحن لن ننبري للدفاع عن الأقصى لنقاتل في سبيل تحريره إذا كان الأقصى حق للفلسطينيين وحدهم، فلا يدخله ولا يخرج منه أحد من المسلمين إلا بإذنهم، فإن كان كذلك، فليذهب الفلسطينيون أنفسهم لتحرير أرضهم وأقصاهم، (والمثل الشعبي الأردني يقول- كل واحد يقلّع شوكه بيديه).

أما إذا اعترف لي الفلسطينيون بحقي في الأقصى وأن هذا ليس حكراً لهم، ولن يمنعوني عنه، وأنّ حقي فيه كمسلم لا يزيد ولا ينقص عن حق أي فلسطيني يسكن أرضه، عندها سيقع عليّ واجب شرعي بالدفاع عنه والموت في سبيل الذود عنه وتحريره.

فإذا كان عباس ومنظمته هو الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني وهو المفاوض الوحيد الذي له حق التصرف بالأقصى (يتنازل عن نصفه ويقبل بنصفه الآخر تحت سيادة دوليه) فإنني في حل من كل واجب شرعي تجاه الأقصى وكل مقدسات فلسطين، فأرض الإسلام الذي يحثني الحديث الشريف الدفاع عنها ويحمّلني المسؤولية الشرعية في الجهاد فيها وعنها هي أرض لكل الإسلام والمسلمين، وحق المسلمين فيها لا ينقص منه شيئاً إذا كانوا لا يسكنوها، فأنت تدافع عن أرضي وأنا أدافع عن أرضك ليس لأنّ هذه حق لي وتلك حق لك، بل لأنها كلها أرض الإسلام والمسلمين، يتمتعون بخيراتها في الرفاهة ويدافعون عنها جميعاً في أوقات الشدة والأزمات.

انضمام الأردن إلى مجلس التعاون الخليجي

والآن وقد جاء اختبار حقيقي لهذه المعادلة بطلب الأردن الانضمام إلى مجلس التعاون الخليجي، تتعالى الصرخات من هنا وهناك بين من يؤيد ومن يعارض، ويكأن الأمر يجب أن يتماشى حسب هوا هذا أو مراد ذاك، ولكنهم لم يحتكموا جميعاً (ولم ينبري علماء الأمة) إلى شرع الله، ليكون هو الحكم الفيصل في هذا الأمر.
أما أنا فيتمثل موقفي بما يلي: أرجو من الله العلي القدير أن لا ييسر انضمام الأردن إلى ذاك المجلس لأننا عندها سنكون شركاء في الجريمة، ولكن كيف؟ ولماذا؟

إن في انضمام الأردن إلى ذاك المجلس يعني أن يترتب على المجلس تبعات مالية للأردن – البلد الفقير بمقدراته الاقتصادية وبفكر حكوماته المعاقة المتعاقبة، فغالباً ما برزت الصورة لدى الآخرين (وهم محقون بالطبع بسبب سلوكيات قيادات هذا البلد) أن هذا شعب متسول يعيش على فتات الهبات من الغرب (الكافر) والجنوب (المسلم الغني)، وغابت صورة بسيطة (على قلتها) أن يكون في هذا الجزء من العالم الإسلامي كما في كل زاوية من بلاد الإسلام والمسلمين صورة ناصعة لبعض أبناءه الذين لا زال عندهم شيء من العزة بدينهم وعقيدتهم، الذين لا يقبلون بغير دينهم ثروة الأرض بأكملها، فهم لا يستبدلون ثروات الأرض بأكملها بشيء من دينهم، لأنهم ببساطة لا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

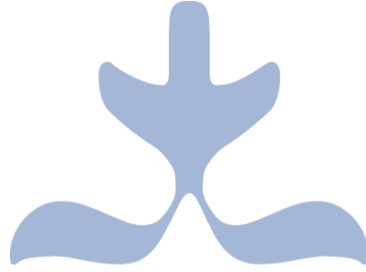
المهم في الموضوع هو التبعات الاقتصادية المترتبة على المجلس الخليجي في حالة انضمام الأردن إليه، فمن هذا المنبر غير المعروف أتوجه إلى شعوب الخليج بأكملها – سائلاً الله تعالى أن يسمع صوتي هذا كل ذي بصيرة ورأي في بلاد الإسلام- أن لا يرضى أهل الخليج بانضمام الأردن إلى ناديهم، فهم لديهم خبرة سابقة كافية بما حصل للمساعدات التي قدّموها للأردن في السابق، واستقر جلّها في بنوك سويسرا وبورصات وول ستريت، ولا أظن أن المساعدات التي ستقدم لهذا البلد في المستقبل سيكون مآلها أفضل من سابقاتها (ولما كان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، فأرجو أن لا يصار إلى هذا الغلط مرة أخرى).

وأما بالنسبة للشعب الأردني فأقول: ألم تكن عقيدتكم على الدوام أن ثروة الخليج هي حق لكل بلاد الإسلام والمسلمين، فما لكم اليوم تنكصون على أعقابكم وترغبون أن تشاركوا أهل الخليج تلك الثروة، ولا يهمكم إن منعت عن جيرانكم في سوريا ومصر وفلسطين ولبنان والسودان وغيرهم؟ هل ترضون بفتات من تلك الثروة لتتنازلوا عن عقيدتكم التي حملتموها في صدوركم عقوداً من الزمان؟ أم أن المال يغيّر العقائد ويشتري الذمم؟ هل تبيعون عقيدتكم بمتاع من الدنيا زهيد، أما أنا فوالله لست بحاجة لثروة الخليج بأكملها ولو وضعت على طبق واحد.

ولا يظنن أحد من أهل الخليج أننا نحسدهم على ثروتهم تلك، بل على العكس، فوالله الذي لا إله سواه أنني أسرّ كلما ازددتم غنى، و والله الذي لا إله سواه أنني أفرح عندما تزيد أسعار النفط حتى لو كان ذلك يكلفني المزيد من جيبي، وأحزن عندما تنخفض أسعار النفط حتى لو كان هذا ينقض شيئاً مما تبقى في جيبي، ولكني أعلم أن في زيادة أسعار النفط هذه خير لكثير من أبناء الإسلام والمسلمين، واللهَ أدعو أن يزيدكم ويزيدكم ويزيدكم، فخزائن الله ممتلئة لا ينقصها شيء. وأدعو الله العلي القدير أن يكون هذا الغنى غير مقطوع عن بلادكم ما دامت السموات والأرض، ولكني أخشى ما أخشاه أن يكون في كلامي السابق شيء من الحق، في أن تكون تلك الثروة ليست من حقكم وحدكم، بل هي ثروة لكل بلاد الإسلام والمسلمين، وعندها ستكونون كمن يتمتع بخيرات غيره، وكمن يأكل حق غيره، فتكونون مطالبين بها يوم الحساب الأكبر. والله أعلم، قال تعالى:

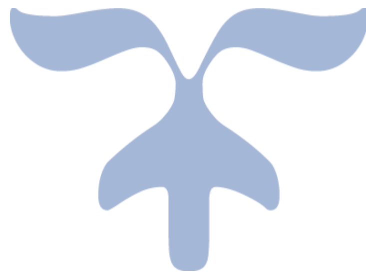
- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران: 61]

وللحديث بقية



والعلماء هم الظالمون

الجزء الرابع



الجزء الرابع: والعلماء هم الظالمون

نتابع في هذا الجزء مناقشة بعض الفتاوى الصادرة عن من يسميهم الناس بـ "أهل العلم" في بلاد الإسلام، مركزين على الفكرة التي طالما جهدنا في تقديمها في هذا الكتاب، وهي: استغلال الفتوى الدينية لتنفيذ مطامع الحكام، وكيف أصبح رجال الدين ألعوبة (أراقوز باللسان المصري) بيد أسيادهم وولاة أمورهم. ونتعرض هنا لثلاث فتاوى صدرت عن كيانات دينية معروفة ومقدرة عند عامة الناس أو عن رجال دين غالباً ما تغنى الناس بعلمهم، وها هي الشدائد والمحن (أو الفتن) تتوالى ليميز الله الخبيث من الطيب، ولعلي بحاجة أن أؤكد مرة أخرى على أن هذه الفتن (رغم الجراحات والآلام التي تسببها) تساعد في تصحيح مسار هذه العقيدة، فغالباً ما استقرت في أذهان الناس أفهام خاطئة يصعب تصحيحها إلا إذا وقعت الأمة بأكملها في فتن لا تخرج منها إلا بعد أن تصحح الأمة عقائدها الخاطئة التي لازمتها فترة طويلة من الزمن، وسنحاول أن نبين في مقالتنا هذه كيف يمكن لثورات الربيع العربي أن تساعد في تصحيح مسار عقيدة انحرفت عن جادة الصواب، وحتى لا يبقى كلامنا هذا في إطاره النظري، فإننا سنقدم الدليل من فتوى استقرت في بطون الكتب الصفراء التي هلكت وأهلكت الأمة فترة طويلة من الزمن بعد أن أصبحت من مسلمات أهل العلم الذين لم يقدّموا لهذه الأمة أكثر من النقل الخاطئ عن أسلافهم، ونخص بالذات هنا الفتوى الشهيرة بعدم شرعية الخروج على الحاكم.

الفتوى: لقد كانت معظم المدارس الفقهية الإسلامية وكبار المنظّرين للفكر الإسلامي يفتون بعدم جواز الخروج على الحاكم

رأينا: هذه الفتوى مكانها الصحيح في مزبلة التاريخ وهي ليست من الدين في شيء

الفتوى التي نظن بصحتها: لزوم الخروج على الحاكم

وسنقدم في هذا الجزء أمثلة ثلاثة نحاول من خلالها أن نروّج لموقفنا هذا، والأمثلة الثلاث هي:

1. السماح للمرأة بقيادة السيارة والمشاركة في الانتخابات ومجلس الشورى في "السعودية"
2. فتوى مجمع علماء اليمن بعدم جواز الخروج على علي عبد الله صالح
3. فتوى الشيخ محمد سعيد البوطي بجواز "السجود" لبشار الأسد كما تناقلتها وسائل الإعلام

هل يجوز للمرأة أن تقود السيارة؟

لقد شغل هذا السؤال فكر علماء "السعودية" منذ أن دخلت أول مركبة تلك الديار العامرة، وتسابق العلماء في الاجتهاد لظنهم أن السيارة هي من اختراعات القرن العشرين التي لم يأتي ذكرها في كتاب الله (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان مصادر التشريع في الإسلام)، وكانت نتيجة التنقيب المضنية في بطون أمهات الكتب الصفراء على رفوف مكتباتهم، وإعمال النص الشرعي وتحكيم العقل فيها أن الغالبية الساحقة من علماء ذلك البلد الطيب ذهبوا إلى حرمة أن تقود المرأة السيارة بنفسها.

ولمّا كان هذا من الدين (فهو رأي أجمع عليه كبار العلماء) لم يجد آل سعود بدّاً (وهم طبعاً الحامين لهذا الدين المدافعين عنه في وجه كل قوى الشر على الأرض) من الالتزام بهذه الفتوى العظيمة، فأمروا أن لا

تصدر رخص قيادة المركبات للنساء، ورضي الشعب بهذا الحال مطمئنين إلى أنهم يطبقون شرع الله، منتقدين –في الوقت ذاته- لغيرهم من أهل الإسلام الذين يخالفون الشريعة عندما يتيحوا المجال للنساء أن تقود المركبات، لتستبيح حرمة الشوارع والطرقات. وقد كان ظنهم أن هذا حرام على النساء حلال للرجال حتى لو كان ذلك (للتخميس في الشوارع)، فالمرأة لا يحق لها أن تقود المركبة (حتى وإن كانت للضرورة، ففي شريعتهم الضرورات تبيح المحظورات إلا ما يخص المرأة)، أما الرجل فله الحق أن يفعل بالسيارة ما يشاء (حتى وإن كانت لغير الغرض الذي صنعت من أجله، ففي شريعتهم يقع ذلك في باب: "قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق").

المهم بالموضوع الفكرة البسيطة جداً وهي أن النساء لا تقود السيارة في السعودية لسبب شرعي (فما تسمى بـ هيئة كبار العلماء) ترى في ذلك مخالفة للدين، وكان هذا هو أمر الدين سنين عديدة وأعواما مديدة.

في السنة الحادية عشرة بعد الألفين للميلاد، يجتمع العاهل السعودي الملك عبد الله يجتمع ويتشاور مع هيئة "كبار ..."، ويخرج بالبيان التالي: "سيصار إلى السماح للمرأة بقيادة السيارة في السعودية"

ردة الفعل: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الملك عبد الله ينتصر لحق المرأة ويطبق شريعة الله في الأرض.

هل يجوز للمرأة أن تشارك في الانتخابات ؟

كان موقف السادة العلماء في "السعودية" قبل ربيع الثورات العربية يتلخص في المواقف التالية: الغالبية الساحقة من العلماء وعلى رأسهم "هيئة كبار ..." قالوا: لا يجوز للمرأة أن تشارك في الانتخابات لا مرشحة ولا ناخبة

بعض العلماء قالوا: يجوز للمرأة أن تنتخب لكن لا يجوز لها أن تترشح

قليل من العلماء المستقلين ظن: يجوز للمرأة أن تترشح وأن تنتخب

أما الحكومة السعودية التي " تحمي دين الله على الأرض" كان لزاماً عليها أن تطبق فتوى "هيئة كبار ..." وتلتزم بها، وأما الشعب فكان راض أشد الرضا عن فتوى علماءه ومنهج وسلوك حكومته التي تطبق شريعة الله على الأرض.

في السنة الحادية عشرة بعد الألفين، يجتمع العاهل السعودي الملك عبد الله يجتمع ويتشاور مع هيئة كبار ...، ويخرج بالبيان التالي: "سيصار إلى مشاركة المرأة في الانتخابات المحلية مرشحة ومنتخبة وستشارك كذلك في مجلس الشورى اعتباراً من الدورة القادمة ضمن الضوابط الشرعية

ردة الفعل: الله أكبر الله أكبر أكبر، الملك عبد الله ينتصر لحق المرأة ويطبق شرع الله في الأرض

تساؤلات:

سبحان الله: ألم يحرم على المرأة أن تسوق المركبة بفتوى هيئة كبار...؟

ألم يحرم على المرأة أن تشارك في الانتخابات المحلية بفتوى هيئة كبار ...؟

ألم يحرم على المرأة أن تكون عضواً في مجلس الشورى بفتوى هيئة كبار ...؟

والآن:

ألا يحل للمرأة أن تسوق المركبة بفتوى هيئة كبار ...؟

ألا يحل للمرأة أن تشارك في الانتخابات المحلية بفتوى هيئة كبار ...؟

ألا يحل للمرأة أن تكون عضواً في مجلس الشورى بفتوى كبار ...؟

السؤال: هل هذا هو الدين؟ هل الدين في الأمس يختلف عن الدين اليوم؟ من الذي حرّم ومن الذي أحلّ؟ هل فعلاً هذا هو شرع الله: بالأمس حرام واليوم حلال؟

الجواب: لا أظن أن هذا يمكن أن يحصل إلا في بلاد يدين أهلها بدين "هيئة كبار..."، وإياكم أن تحاولوا إقناعي أن هذا هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده في قوله تعالى:

- ﴿.... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: 3]

فتوى عدم جواز الخروج على الحاكم لعلماء اليمن

عاد عبد الله على صالح إلى أرض اليمن منتصراً على الجروح التي أحرقته مع صحبه في ثورة اليمن بعد رحلة علاج استمرت أشهرا في السعودية، استطاع مهرة التجميل أن يعيدوا لصالح جزءاً كبيراً من سمرة وجهه اليمني الشاحب بعد أن أعطبته القنابل، نام صالح في فراشه في المستشفى أياماً وليال، وكما يفعل الناس عندما تصيبهم الأمراض ويدخلون المستشفى (وخصوصاً غرفة العناية الحثيثة لمن كانت حالته صعبه) يبدءون بمراجعة أنفسهم، مراجعة تاريخهم الحافل بالذكريات، مستذكرين ما قدّمت أيديهم سوءاً كان أم خيرا، وغالباً ما تكون تلك الوقفة مع النفس صادقة، لأنّ الإنسان ربما يشعر حينها بدنو أو اقتراب أجله، ويخلص إلى نتيجة غالباً ما تكون متشابهة عند كل من يمر في مثل تلك التجربة من أبناء الإسلام والمسلمين، نتيجة مفادها تفاهة هذه الحياة الدنيا، وأنها لا شك زائلة بكل ما فيها، وأنّ الحقيقة تتمثل فقط فيما يأخذ الإنسان معه للدار الآخرة من زاد التقوى، لذا تصبح هذه التجربة أقرب ما تكون إلى رحلة التوبة والعودة إلى الله، فيستغفر الإنسان عن ما اقترفت يداه من ذنب، ويعقد العزم على أن لا يعود لمثله (وهي بالطبع شروط التوبة الصادقة).

هذا – أظن- ما حصل مع الرئيس اليمني بعد تجربته المريرة في المستشفى، ويصدّق زعمي هذا ما فعل الرجل بعد عودته مباشرة، فقد كان أول ما فعل يوم أن عاد إلى أرض الوطن هو أن طلب من علماء الدين في اليمن أن يجتمعوا، ويقدموا له الفتوى الصحيحة الخالصة لله في خروج المتظاهرين إلى الشوارع، فقد كان صالح يودّ أن يعرف إن كان هذا يقع في باب الخروج على الحاكم. وربما لا أجاوز الحق كثيراً عندما أظن أن علي عبد الله صالح كان سيقبل بتلك الفتوى مهما كانت (فهو قد عاد للتو من المستشفى وقد راجع تاريخه الطويل على فراش الشفاء واتخذ قراره بالتوبة إلى الله عن ما اقترف من ذنوب خلال مشوار حياته الحافل:

⇐ فالرجل لن يسرق أموالاً أخرى من اليمن (زيادة عن ما كان قد نهب في السابق)،

⇐ والرجل لن يقتل من اليمنيين أكثر مما قتل سابقاً (سواء كانوا حوثيين أم قاعدة أم من بني الأحمر،

⇐ والرجل لن يسلم مقاليد الحكم لأبنائها وأبناء أخيه أكثر مما سلمهم سابقا،
⇐ والرجل لن يوقّع على اقتطاع أراض أخرى من أرض اليمن لدول مجاورة أكثر مما أعطى سابقاً،
⇐ والرجل لن يستقوي بالأمريكيين ولا بغيرهم على "شياطين" الأرض من اليمنيين أكثر مما فعل سابقاً،
⇐ والرجل لن يبقى في السلطة أكثر من ثلاثين سنة قادمة أخرى (فهو قد أمضى ثلاثين سنة سابقة ويكفيه أن يكمل ثلاثين أخرى وعندها سيسلم السلطة لغيره من أبناء اليمن الأوفياء)،
⇐ والرجل سيحتكم دائماً إلى صناديق الاقتراع لفض الخلاف مع المعارضة في كل صغيرة وكبيرة كما كان يفعل دوماً على مدى الثلاثين سنة الأولى من حكمه الرشيد (فالديمقراطية في اليمن لا تجاريها ديمقراطية سويسرا أو النرويج والدنمرك)،
⇐ والرجل لن ...
⇐ والرجل لن ...
⇐ الخ

المهم في الموضوع: تجتمع رابطة علماء اليمن ليقدموا الفتوى والنصح لرئيسهم التائب عن الذنب، والعائد من أرض الحجاز (ربما كـ يوم ولدته أمه)، والجميل في فعلتهم تلك أنهم لم يحتاجوا إلى أكثر من اجتماع لمرة واحدة، ليخرج الدخان الأبيض من مداخن كهنوتهم ليدل على أنهم قد توصّلوا إلى اتفاق حول شريعة ربهم الذي في السماء فيما يخص ربهم الذي على الأرض، فتنفرج سرائر الناس لسماع الخبر:
الفتوى: عدم جواز الخروج على وليّ الأمر

المطلوب: تكبير: الله أكبر الله أكبر ظهر الحق وبطل الباطل إن الباطل كان زهوقاً

الدماء التي سالت في اليمن، الأنفس التي أزهقت في الثورة، الجهد الذي بذل من أجل التحرر كان كله من أجل الشيطان- حسب فتوى هيئة علماء اليمن، أليس كذلك؟

السؤال: هل هذا هو الدين؟ هل فعلاً هذا هو شرع الله: يقتل الناس في الشوارع، يقصف الناس في بيوتهم، يموت الأطفال وتترمل النساء، يحدث كل ذلك بالغارات الجوية وبمدافع الهاون وبقذائف الدبابات ثم لا يجب على الناس إلا أن يقولوا سمعاً وطاعة؟

لا أظن أن هذا يمكن أن يحصل إلا في بلاد يدين أهلها بدين "رابطة علماء اليمن"، وإياكم أن تحاولوا إقناعي أن هذا هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده في قوله تعالى:

- ﴿.. ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ...٣﴾ [المائدة: 3]

فتوى الشيخ محمد سعيد البوطي بجواز السجود لبشار الأسد

تندلع الثورة في سوريا كما اندلعت في أكثر من مكان في بلاد العرب، تتصدى قوى الأمن والشبيحة لهذه المظاهرات، يخرج النظام على العالم ليحذر من خطر الجماعات المسلحة التي تعيث فساداً في سوريا بسبب دورها المقاوم والممانع في المنطقة، تشتد الأزمة، يجتمع السيد الرئيس ذو العنق الطويل مع مشايخ

سوريا في ليلة رمضانية على مائدة الإفطار، يتناول كل منهم كأسا فيه شراب ليكون أول فطوره بعد صيام دام يوماً كاملاً، يقول كل منهم ما يقوله الصائم عند الإفطار:
اللّهمّ لك صمت وعلى رزقك أفطرت

يشرب الحاضرون جميعاً من الكأس الموضوعة على الطاولة، وما هي إلا لحظات حتى يكتشف كل منهم أن الذي شربوه من الكأس كان دم حمزة الخطيب، وأمثاله من أطفال درعا وحمص وبانياس ودير الزور و...

ما نود أن نعرفه من هؤلاء الذين حضروا المأدبة تلف رؤوسهم العمائم البيضاء و وجوهم اللحى الطويلة والقصيرة هو: كيف كان طعم دم حمزة الخطيب؟ هل يقارن بنبيذ الشام الأحمر؟ لا شك أنه أزكى من مشروبات المنتجات السورية المحلية التي كانت تنافس بيبسكو وكوكا كولا!

وماذا عن الطعام؟

لقد وجد أصحاب العمائم شتى أصناف الطعام على الطاولة ولكن الذي كان يميّز تلك الوليمة وجبة جديدة في شكلها وطريقة تقديمها، لذا كان يصعب على المشايخ معرفتها مباشرة، شكلها شكل كبد مطبوخة بيد أمهر الطهاة، تسارع الجميع للحصول على حصّة منها، وعندما حاول بعضهم معرفتها وسأل عنها قالوا لهم أن تلك الكبد هي كبد حمزة الخطيب وأمثاله من أطفال درعا وحمص وبانياس ودير الزور و...
حاول السيد الرئيس أن يزيل اللثام عن كيفية وصول الكبد إليه فقال: لربّما سمعتم ما قالته واحدة من المطربات (اللواتي طالما اهتممنا بهنّ في بلادنا سوريا حتى غدونا ننافس مصر ونتفوق عليها في الرقص والغناء والتمثيل بما قدمناه من رعاية لهم ودعم في بلدنا الحبيب) لقد قالت في أغنيتها تلك أنها بعثت برسالة إلى عشيقها ورسمت عليه صورة نصف قلبها لتسأله عن تعليقه على الموضوع فقالت:

نص القلب رسمته وبكعب الصفحة كتبتله شو تعليقك ع الموضوع

فجاء رد عشيقها الذي أحبها لدرجة الجنون ليقول لها أن رسم نصف القلب لا يكفي للتعبير عن حب المعشوق، فقام برسم القلب كله ورد عليها بالقول:

ألِلي بده الثاني يحب بيرسمله قلبه كله

وأنا كرئيس للبلد – ارتفع صوت الرئيس بالقول للحاضرين- وبسبب حبى (لا بل عشقي) لقلب حمزة الخطيب وأمثاله من أطفال سوريا فأنا على استعداد لا أن أرسم نصف القلب كما فعلت هي ولا أن أرسم القلب كاملاً كما فعل هو بل أنا على استعداد (على استعداد، على استعداد...أن أطلعله قلبه كله)
(صفق الحاضرون من المشايخ)بالرغم من حرمة التصفيق إلا أن الموقف أكبر من أن يحتملوا السكوت فيه منبهرين بشدة حب رئيسهم لأكباد أطفال بلده!

ما نود أن نعرفه من هؤلاء الذين حضروا المأدبة تلف رؤوسهم العمائم البيضاء ووجوههم اللحى الطويلة والقصيرة هو: كيف كان طعم كبد حمزة الخطيب؟ هل يقارن بكبد الخراف السورية التي يفوق سعرها أضعاف ما يستورد من استراليا والبرازيل؟

في ذلك الاجتماع المشهود طلب السيد الرئيس من المشايخ الأجلاء إبداء الرأي الديني (أي الفتوى الشرعية فيما يحصل على أرض الشام من مؤامرة خارجية وداخلية لإسقاط نظام خليفة الله وابن خليفة الله في الأرض)، جاء الجواب سريعاً بعد أن كانت البطون قد امتلأت بما توافر على المائدة من ملذات الطعام والشراب:

"هذا خروج على الحاكم محرم شرعاً"

وذهب كبيرهم الذي علّمهم السحر ويسمى محمد سعيد البوطي إلى أكثر من ذلك: وجوب السجود لخليفة الله في الأرض، ولسان حاله يقول ألم يسجد أخوة يوسف ليوسف يوم أن دخلوا عليه ورفع أبويه على العرش؟ ما الفرق إذاً بين بشار الأسد وعزيز مصر؟ أليس بشار هو عزيز الشام؟ ألم يتعامل بشار (وأبوه حافظ من قبله) مع كل أهل الشام على أنهم إخوته؟ ألم تدخل مفردة "الرفيق" بمعناها الجديد في قاموس اللغة بسبب الثورة التصحيحية الخالدة؟ لم إذا لا يبادلونه الود بالود؟ لم لا يخروا له سجداً كما فعل إخوة يوسف مع أخيهم الذي رفعه الله فوقهم؟

السؤال: هل هذا هو الدين؟ هل فعلاً هذا هو شرع الله؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في الشام؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في الأردن؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في السعودية؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في قطر؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في البحرين؟ الخ. ولكن هناك مشكلة بسيطة: كم رباً سيسجد الناس له في العراق؟

الجواب: لا أظن أن هذا يمكن أن يحصل إلا في بلاد يدين أهلها بدين "محمد سعيد البوطي وأمثاله"، وإياكم أن تحاولوا إقناعي أن هذا هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده في قوله تعالى:

﴿... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ... ٣﴾ [المائدة: 3]

وللحديث بقية